

١٩٥٦

مكتبة نوبل

خوان رامون خميش أنا وهاري

ترجمة

الدكتور لطفي عبد البديع



١٩٥٦

مكتبة نوبل

خوان رامون خميش أنا وهاري

٥-٨٥٢ : ٢

ترجمة

الدكتور لطفي عبد البديع



مقدمة

كتاب «أنا وحماري» للشاعر خوان رامون خيمينيث الذي نقدمه اليوم إلى قراء العربية قمة من قمم الأدب الإسباني ، دعا فيه الشاعر حمارة الفضلي المسمى بلاتيرو إلى التأمل معه في الوردة والفراشة ، والمسيل والتلّ ، والشفق والغروب ، وطاف به في قريته «مُغير» بين ملاعب صباه ليشهد بؤس البائسين وفرح الفرحين ، ولينظر ما في الأحياء والكائنات من صور التقطها خيال شاعر طابق في كيانه بين الشعر والحياة .



ولد خوان رامون سنة ١٨٨١ في مُغير إحدى قرى والبنة وتقع في الجنوب الغربي من إسبانيا ، ونمت طفولته في بياض القرية الأندلسية التي تفتحت فيها أولى طاقاته الشعرية ، وانتقل إلى مدريد لأول مرة في سنة ١٩٠٠ ومعه شعر كثير بهر به أعلام الشعر في ذلك العصر من أمثال شاعر نيكاراغوا روبن داريو قطب المدرسة الحديثة في الشعر ، وفرانسيسكو فيليبا سبيسا الشاعر الأندلسي الصداح ، ثم عاد إلى مُغير وظل فيها إلى سنة ١٩١٢ رجع بعدها إلى مدريد مرة أخرى ؛ وتزوج في سنة ١٩١٦ زنوبيا كامبروني التي ترجمت شعر طاغور إلى اللغة الإسبانية .

وفي تلك الحقبة أقبل خوان رامون على مطالعة شعر الشعراء الفرنسيين والإنجليز والألمان مع إثارة للرومانتيكيين منهم وكتب في المجلات الأدبية وغمر العالم الإسباني والعالم الأوربي بشعره وأكثر من الرحلة في أنحاء إسبانيا وفرنسا وغيرهما من البلاد الأوروبية ، ثم نشبت الحرب الأهلية وهو

في مدريد فانتقل إلى أمريكا اللاتينية وجعل يتنقل بين بلادها ويلقي المحاضرات في جامعاتها ويلوذ به شباب الشعراء الذين وجدوا في شعره قيامة جديدة تدل على أستاذية أصيلة ، فسافر إلى بورتوريكو وإلى كوبا والأرجنتين وأقام زمناً في الولايات المتحدة وقصد أورغواي ثم استقر في بورتوريكو التي توفي فيها سنة ١٩٥٧ .

وخوان رامون شاعر خلق حساسية جديدة للشعر انبعثت في سائر إنتاجه الذي ملأ عدة دواوين وكان لها أثر عميق في شعراء العالم الإسباني قاطبة ، وقد توجت حياته الشعرية بجائزة نوبل للآداب التي فاز بها سنة ١٩٥٦ .

وإذا كان هناك شاعر استطاع أن يبلغ بشعره الكمال الفني من حيث الموسيقى الداخلية والصفاء الكامل للشعر فهو خوان رامون خمينث الذي جعل من حياته شعراً ومن شعره حياة ، وهو لا ينتمي إلى مدرسة معينة من مدارس الشعر وإن كان قد استهل حياته متأثراً بالرمزية الفرنسية والمذهب الحديث الذي أصله في العالم الإسباني روبين داريو ، إذ ينطلق على سجيته يلتقط ما في الكون والطبيعة من شعر يمتزج فيه الوجود العام بوجود الشاعر فتتراءى الطبيعة متأثرة بخلاجات نفسه واهتزازات كيانه . فالشاعر يستهويه البحر كما تستهويه النار ويرى في الموت شبحاً يلاحقه في كل مكان يثير توتراً في ذاته القلقة المتطلعة دائماً إلى المجهول . ومثله الأعلى في الشعر تجرده من شوائب الكلمة الخطابية التي تعوق موسيقاه وتكدر صفو الغنائية التي تترقق فيه حتى يكون ما سماه بالشعر العاري .

وخوان رامون لم تصرفه أحداث العصر وأزمات الساعة عن رسالته الشعرية الكبرى التي تتمثل في النظر إلى جوهر الأشياء لا عرضها ،

ففلسفته الشعرية تتغذى من الدائم لا المتغير ومن الثابت لا المتحول فهو طراز آخر يختلف عن معاصريه من أمثال فرانز كافكا ووليام فولكنر ومايكوفسكي ونيرودا ، شعاره المطابقة بين الشعر والطبيعة النقية ، وبين الشعر والحياة المجردة عن المشاغل الموقوتة ، فالحياة في جوهرها هي مجال عمل الشاعر الذي لا ينبغي أن تلتهمه دنيا الناس ، والشاعر بعكوفه على هذا الجوهر إنما ينقي الحياة من شوائب البؤس ويرفعها إلى مستوى الجمال الكامل .

وكتاب «أنا وحماري» ليس بطله «بلاتيرو» ولا «خوان رامون» وإنما هو -على حد ما ذكر الناقد أنريك دياث كانيدو في كتابه «خوان رامون وشعره»- قرية الشاعر مغير باعتبارها كائناً حياً له شخصيته المتغيرة في كل ساعة وفي كل فصل وفي كل موقف ، فالكائنات والأشياء في القرية كأنها حوادث قصة تنبعث بها نفس شاعر حزين يغمره الشوق والحنين ، يرثي الطفل الأبله والكلب الأجير والكناري المحتضر .

والكتاب ليس تاريخاً لحياة حمار ثرثار ينطقه قاصٌّ بحكمة أخلاقية تشبه «الذنب الجاف والرماد والريشة الساقطة» وإنما هو رمز اتخذته شاعر أثره بقلبه على إنسان لا روح فيه .

وكان من أثر الروح الإنسانية التي تسري في فصول الكتاب أن خلدت ذكرى بلاتيرو في العالم الذي عرفه ، وما أكثر اللغات التي ترجم إليها ، وقد بلغ من شيوعه أن وضعت نسخة للعميان في الولايات المتحدة على طريقة بريل ، وأن صنعت لبلاتيرو تماثيل ودمى من الورق والقش والجص فصار بلاتيرو كائناً عالمياً له تاريخه في مختلف الأمم والشعوب . وبعد فهذا «أنا وحماري» في لغة الضاد وقد وضعت فيه من نفسي مثل ما وضع الشاعر ؛

فترجمة مثل هذه المراثية أو هذا الديوان الشعري المنشور تمثلُ لنفس شاعر
والتقاط لصوره السماوية الطائفة وليس هذا بالأمر الهين ، وعسى أن أكون قد
وفقت .

لطفي عبد البديع

في ذكرى

إجديليا

المجنونة المسكينة

بشارح دل سول

التي كانت تبعث إلي بالتوت والقرنفل

في ذكرى

إجديليا

المجنونة المسكينة

بشارح دل سول

التي كانت تبعث إلي بالتوت والقرنفل

بيان للكبار الذين يقرؤون هذا الكتاب للأطفال

هذا الكتاب الموجز الذي يقترن فيه الفرح بالألم اقتران توأمين كأنهما أذنا بـلاتيرو كُتِبَ لـ... لا أدري لمن..... لمن نكتب لهم نحن معشر الشعراء الغنائيين.. والآن وهو موجه إلى الأطفال لن أحذف منه ولن أزيد عليه فاصلة . ما أجمل هذا .

يقول نوفالس* : حيثما كان الأطفال كان العصر الذهبي ، ومن أجل هذا العصر الذهبي الذي كأنه جزيرة روحية هبطت من السماء يسير قلب الشاعر ويرسو فيها على هواه ، فليس أحب إلى نفسه من أن يبقى فيها ولا يهجرها إلى الأبد .

يا جزيرة الرحمة والنضارة والسعادة ، والعصر الذهبي للأطفال ، طالما وجدتك في حياتي وهي بحر من الألم ، ووهبتني نسمتك قيثاره عالية لا معنى لها أحياناً ، كأنها ترنيم القنبرة في شمس الشروق البيضاء .

الشاعر

(*) فردريك نوفالس شاعر ألماني (١٧٧٢-١٨٠٢) خير من يمثل الشعر العماثي الرومانتيكي (لـع)

بيان للكبار الذين يقرؤون هذا الكتاب للأطفال

هذا الكتاب الموجز الذي يقترن فيه الفرح بالألم اقتران توأمين كأنهما أذنا بلاتيرو كُتِبَ لـ . . . لا أدري لمن لمن نكتب لهم نحن معشر الشعراء الغنائيين . . والآن وهو موجه إلى الأطفال لن أحذف منه ولن أزيد عليه فاصلة . ما أجمل هذا .

يقول نوفالس* : حيثما كان الأطفال كان العصر الذهبي ، ومن أجل هذا العصر الذهبي الذي كأنه جزيرة روحية هبطت من السماء يسير قلب الشاعر ويرسو فيها على هواه ، فليس أحب إلى نفسه من أن يبقى فيها ولا يهجرها إلى الأبد .

يا جزيرة الرحمة والنضارة والسعادة ، والعصر الذهبي للأطفال ، طالما وجدتك في حياتي وهي بحر من الألم ، ووهبتني نسمة قيثار عالية لا معنى لها أحياناً ، كأنها ترنيم القنبرة في شمس الشروق البيضاء .

الشاعر

(*) فردريك نوفالس شاعر ألماني (١٧٧٢-١٨٠٢) خير من يمثل الشعر العماثي الرومانتيكي (ل-ع)

بلا تيرو



بلا تيرو صغير كثر
الشعر رقيق ، بض من ظاهره
حتى ليجوز أن يقال إنه كله
من القطن لا عظام فيه ، كل
ما هنالك أن مرايا عينيه
اللتين من الكهرياء السوداء
صلبة كجعرانين من زجاج
أسود .

أتركه طليقاً فيمضي
إلى المرح ويداعب بقمه
الأزهار الوردية والسماوية
والصفراء .. ولا يكاد يبيلها .

أدعوه بعذوبة «بلا تيروا»
فيقبل نحوي في ركض مرح
يبدو معه أنه يضحك ، وفي

صلصلة مثالية لا أدري كنهها .. يأكل كل ما أعطيه فيستطيب البرتقال
الحامض والأعشاب المسكية كلها عنبر ، والتين البنفسجي بقطراته الزجاجية
التي من العسل ..

رقيق مدلل كالطفل والطفلة .. لكنه قوي وصلب في باطنه كالحجر؛
حين أمضي به أيام الأحاد في أزقة القرية ينظر إليه أبناء الريف ويقولون :
- فيه فولاذ ...

فيه فولاذ ... ، فولاذ وفضة قمرية معاً .

* * *

الفراشات البيضاء



يهبط الليل بنفسجياً
يغشاه الغمام ، وتترأى خلف
أبراج الكنيسة أضواء
بنفسجية وخضراء ، ويصعد
الطريق وهو مليء بالظلال
والعوسج وشميم النبت
والأناشيد والأعياد والرغبة ؛
وإذا برجل غامض على رأسه
قلنسوة ومعه شوكة يكشف
عن وجهه القبيح في ضوء
لفاقة التبغ ، ثم يهبط إلينا من
كوخ حقير ضال بين أكياس
الفحم ، فيضطرب بلاتير .

- هل معك شيء .

- انظر . . . فراشات بيضاء .

ويروم الرجل أن ينفذ شوكته الحديدية في السرج ولا أمنعه ، فأفتح
الخرج ولا يرى شيئاً ، ويمضي الغذاء المثالي طليقاً بريئاً دون أن تدفع له عوائد
أو رسوم . . .

حب الغوب

في شفق القرية حين ندخل أنا وبلاتيرو ، ونحن نرتعد من البرد في
الظلام البنفسجي للزقاق الحقيق الذي يطل على النهر الجاف ، يعبث
الأطفال المساكين بأن يُفزع بعضهم بعضاً متظاهرين بمظهر الشحاذين ،
فأحدهم يلقي كيساً على رأسه ، والآخر يقول إنه لا يرى والثالث يتظاهر
بالعمى .

ثم إنه في هذا التجاوب المفاجئ للطفولة يظن هؤلاء الأطفال بما في
أرجلهم من أحذية ، وما عليهم من ثياب ، وما أعطتهم أمهاتهم من طعام
أنهم أمراء فيقولون :

- أبي عنده ساعة من الفضة .

- وأبي عنده حصان .

- وأبي عنده بندقية صيد .

ساعة تُوقظ الفجر ، وبندقية لا تقتل الجوع ، وحصان يحمل إلى
البؤس . . . ويأخذون في العدو بعد ذلك ، وفي غمرة السواد تنطلق طفلة
غريبة ، تتكلم بطريقة غير التي يتكلم بها سواها ، فهي ابنة أخت «الطائر
الأخضر*» وتغني بصوت خافت كأنه خيط من الزجاج المائي في الظلال

(*) لقب لإنسان من أهل القرية .

كما لو كانت أميرة :

أنا أرملة الكونت دي أورى

. . بلى بلى غنوا واحلموا أيها الأطفال المساكين ، فعما قريب حين

يظهر صباكم سيفاجئكم الربيع ، كأنه سحاذ مقنع في الشتاء . .

هيا بنا يا بلاتيرو

§ الكسوف

وضعنا أيدينا في جيوبنا دون أن نشاء ، وأحست الجبهة بالاهتزاز الرقيق للظل الجديد على نحو ما يكون المرء في غابة كثيفة من أشجار الصنوبر ، وراحت الدجاجات تلوذ الواحدة تلو الأخرى بالدرج الذي يقبها ، ومن حول ذلك اتشحت خضرة الريف بثوب الحداد كما لو كان الحجاب البنفسجي للمذبح يضمها ، وتراءى البحر البعيد أبيض اللون ، وبعض النجوم تتألق وهي شاحبة ذابلة . تُرى كيف تتشكل أسطح الدور من بياض إلى بياض ! أما نحن الذين كنا فيها فقد جعلنا نصيح بأشياء تتفاوت في الحسن والقبح ، والصغر والظلام ، في الصمت المحدود لهذا الكسوف .

كنا ننظر إلى الشمس بكل شيء ، بمنظار المسرح والمجهر ذي البعد والقارورة وقطعة الزجاج المعتم ، كما كنا ننظر من جميع الجوانب : من الشرفة وسلم الفناء والنافذة التي في مخزن الحبوب وشباك البهو من خلال زجاجه ذي الحمرة القائمة والزرقة ...

ولما غابت الشمس ، وكان كل شيء قبل مغيبها يجعلها أكبر من حقيقتها مرتين وثلاث مرات ومائة مرة ، ويزيدها حسناً بما يتداخل فيها من صوء وذهب ، تركها كل شيء ، فيما عدا فترة الشفق الطويلة ، وحيدة بائسة كما لو كانت استبدلت النحاس بدينار الذهب أولاً ثم بالفضة ثانياً ، وكانت القرية أشبه بكلب صغير متناقل من الكسل لا يُغيّر من وضعه ؛ ما أشد حزن الشوارع والأفنية والبرج وطرق الجبال وما أصغرها !! .

وكان بلاتير وفي الفناء كأنه حمار أقل من حقيقته ، مختلف ،
متطامن ، حمار آخر

القمر يمضي معنا كبيراً
مستديراً صافياً ، وفي المروج
الحاملة تتراءى عنزات سوداء
لا تكاد تبصرها العين بين
العوسج

كان أحداً يتوارى عن
طريقنا وعلى السياج
شجرة هائلة من أشجار اللوز
يتوَّجها الزهر والقمر ، وقد
لفت تاجها في سحابة
بيضاء ، تحضن الطريق المرصع
بنجوم شهر مارس ... رائحة
البرتقال النفاذة ... رطوبة
وسكون ... وادي النقاآت
في العقد ...

- يا بلاتيرو ... ما
أشد البرد ! .



لكن بلاتيرو ، ولا أدري إن كان ذلك من خوفه أو من خوفي ، يركض

وينزل في المسيل ويطأ القمر ويمزقه إرباً ، وكأنما يحدق به سرب من الأزهار
البلورية الصافية تريد أن تمسكه وهو يركض .
ويركض بلا تيرو مُصْعِداً وقد ضم مؤخره كأنه يخشى أن يدركه أحد ،
ويحس في أثناء ذلك بالفتور الرقيق للقرية التي تقترب ، ولكنه فيما يظهر
فتور لا يصل إليه قط . . .

٦ المدرسة

لو أنك يا بلاتيرو جئت مع بقية الأطفال إلى المدرسة لتعلمت الألف والباء والتاء ولكتبت رسم الحروف ، إذن لعرفت كثيراً مثلما عرف الحمار المصور من الشمع -صديق عروس البحر ، الذي يخيل إلى من يراه أنه متوج بالزهر ، للبلور الذي يتراءى فيه ، فكله ورد ولحم وذهب في عنصره الأخضر ، لعرفت إذن يا بلاتيرو أكثر مما يعرف طبيب «بالوس» وراهبها .

ولكن مع أنك لا تتجاوز أبعة أعوام فأنت كبير قليل الرقة ، ثم على أي كرسي ستجلس ، وعلى أي نضد ستكتب ، وأي ورقة وقلم سيكفيانك ، وفي أي مكان من الفناء سترتل تراتيل الشهادة؟ قل ! .

كلا إن «دنيا دومتيلا» وعليها مسوح بنفسجية كمسوح يسوع ، وتشد وسطها مثل «ريس» السماك ، قد تحملك على أن تجثو على ركبتيك ساعتين في ركن من أركان بهو الموز أو لعلها تضربك بعصاها الطويلة التي في يدها ، أوتأكل مربى السفرجل التي معك لتتناولها بعد الظهر ، أو تضع ورقة محترقة تحت ذيلك فتحمر أذناك وتسخنان كما يقع لأذني ابن الزارع الشقي حين تمطر السماء . . .

كلا يا بلاتيرو كلا ، تعال أنت معي ، فسأعلمك الزهر والنجوم ، ولن يضحكوا منك كما يضحكون من طفل أحمق ، ولن يضعوا لك ، كما لو

كنت ما يسمونه حماراً ، الطاقة ذات العينين الكبيرتين اللتين تحديق بهما
النيلة والمغرة* ، كالعيون التي في قوارب النهر ، مع أذنين ضعف أذنيك . . .

* المغرة التراب الاحمر وقد أثريا انقاء اللفظ على صورته في الاسبانية *almagra* لاشتقاقه من العربية (ل-ع)



لا بد أنني وأنا متشح
بثياب الحداد، ولحيتي
السوداء الكبيرة، وقبعتي
السوداء القصيرة، كنت ذا
منظر غريب وأنا أركض ممتطياً
صهوة بلاتيرو اللينة
الرمادية .

ولما كنت عند الكرم
وأخذت أخترق الشوارع
الأخيرة، البيضاء من الجير
مع الشمس، إذا بأطفال
الغجر وهم صغار الأجسام
سمر الوجوه، قد خرجوا من
أسمالهم الخضراء والحمراء

والصفراء، فبدت بطونهم بلونها الذي لوحته الشمس، يعدون خلفنا
ويصيحون: المجنون! . المجنون! . المجنون! .

وكان بين يدينا الريف بخضرته، وقبالة السماء الهائلة الصافية بلونها
الأزرق المتقد تنفتح عيناى -وما أبعدا عن سمعي!- لتتلقيا في هدوءهما

هذا السلام الذي لا اسم له ، وهذا الجلال المتسق الإلهي الذي يعيش في
لانهاية الأفق

وتبقى هناك في الآفاق العالية أصوات حادة ، مسترسلة متقطعة نفاذة
ضجرة :

المجـ نون! المجـ نون!

يهودا

لا تفزع يا صاح : ماذا دهاك؟ هبا ولتهداً نفسك . . . هل يقتلون يهوذا أيها الأبله .

بلى إنهم يقتلون يهوذا ، واحد معلق في «المنترىو» وثان في شارع «اغديو» وثالث هناك في «البوثودل كونسينخو» ؛ رأيتهم مساء أمس وكأنا ثبتتهم قوة سماوية في الهواء ، لا يكاد يُرى في الظلمة الحبل المزدوج الذي يمسكهم على الشرفة .

تُرى أي خليط عجيب من القبعات العريضة وأكمام النساء وأقنعة الموظفين والأشياء التافهة تحت النجوم الجلييلة . والكلاب تنبحهم دون أن تذهب والخيول الخائفة لا تريد أن تمضي من تحتهم . . .

والآن تقول النواقيس يا بلاتيرو إن حجاب المذبح الأكبر قد تقطع ، لا أظن أن قد بقيت في القرية بندقية لم تُطلق على يهوذا ، وإلى هنا تصل رائحة البارود . طلبة . أخرى : أخرى ! .

. . . يهوذا وحده يا بلاتيرو هو اليوم النائبة أو المعلمة أو الغريب أو محصل الضرائب أو العمدة أو الولادة ، وكل امرئ يطلق بندقية الرعيادة قد صار طفلاً في هذا السبت المقدس ، يطلقها على من يحقد عليه في تراكب من حروب ربعية مزعومة فيها عجب وغموض .

كان الفجر مغشى بالضباب قاسياً ، ولكنه مواتٍ لثمرات التين ، فلما كانت الساعة السادسة مضينا إليها لنأكلها في «لاريكا» .

كان الليل نائماً تحت أشجار التين المعمرة مئات السنين بجذوعها الرمادية التي تتصل بأطرافها القوية في الظل البارد كأنها تحت رداء ، وكانت الأوراق العريضة التي وضعها آدم وحواء تخزن نسيجاً رقيقاً من لؤلؤ قطر الندى الذي تميل معه خضرتها الناضرة إلى شحوب ، ومن هنالك جعل يتراءى بين الياقوتة السفلى الفجر وهو يصبغ بلونه الوردي حجب المشرق التي لا لون لها

. . . . انطلقنا كالجائنين لنرى أينما يسبق إلى كل شجرة ، فأخذ «روثيللو» معي الورقة الأولى من إحداها في ضجة من الضحكات والهزات «هذا نصيبك» ووضعت يدي معه في قلبه ، وكان الصدر الشاب يصعد ويهبط كأنه موجة صغيرة أسيرة . أما «أديلا» ولا تكاد تحسن العدو لبضاضتها وصغرها فكانت تغضب من بعيد . ثم انتزعت لبلاتيرو بضع ثمرات ناضجة ووضعتها له على جذع عتيق حتى لا يضيق صدره ولا يضجر .

واستهلت النزاع «أديلا» وقد تملكها الغضب لتخبّطها وجهلها ، فكان الضحك فبي فمها ، والدموع في عينيها ، ثم ألقت بثمرة على جبهتي . ومضيت أنا و«روثيللو» نأكل التين لا بالفم بل بالعيون والأنف والأكمام وتفاحة آدم ، مع صياح حاد مستمر كان يسقط مع الثمرات المنطلقة هنا

وهناك على الكروم الجديدة في الصباح ، ولما أعطبت ثمرة لبلا تيرو كاد ييجن
من الفرّح ، ولما رأيتّه وهو البائس أعجز من أن يقدر على الدفاع عن نفسه أو
الرد نصرته وتوليت أمره ، ثم ما لبث أن اخترق الهواء الصافي طوفان لين
أزرق في جميع النواحي كأنه طلقة المدفع السريعة .

هنالك انطلق ضحك مزدوج هابط ومكدود ليعبّر من الأرض عن
استسلام الأنثى .

صلاة الغروب

انظر يا بلاتيروا ما أكثر الورود التي تتساقط في كل جانب : ورود زرقاء وورود بيضاء لا لون لها . . . حتى جاز أن يقال إن السماء تساقطت وروداً انظر كيف تفيض جبهتي وكثفيّ ويديّ بالورود . . . ماذا أفعل بتلك الورود الكثيرة؟

- لعلك تعلم من أين هذا النبات الرقيق الذي لا أدري مصدره ، وهو في كل يوم يجمّل المنظر ويضفي عليه اللون الوردي والأبيض والسمائي- ورود ثم ورود- حتى وكأنها لوحة إنجيليكو* التي رسم فيها الفردوس وهو راعع ويظن الظان أن الملائكة يلقون من السماوات السبع الورود على الأرض؟

وتبقى الورود في البرج وفي السقف وفي الأشجار ، كما لو كانت سحابة رقيقة مختلفة الألوان . انظر : تصنع بزيتها كل قوة ناعمة . ورود ثم ورود ، ثم ورود .

يخيل إلى المرء يا بلاتيرو أنه حين يتردد صوت الناقوس مؤذناً للصلاة تفقد حياتنا قوتها اليومية ، وأن قوة أخرى من الداخل أسمى وأدوم وأصفى تجعل كل شيء يتصاعد كنافورات الرحمة إلى النجوم التي تتقد بين الورود . . . ورود أخرى . . . وعيناك اللتان لا تراهما يا بلاتيرو وترفعهما إلى

(*) فرا إنجيليكو لقب جيوفاني دا فيسولي ، ويلقب أيضاً برسام الملائكة ، رسام توسكاني تتسم أعماله برقة الإلهام والتلوين الذي لا يضارع (١٢٨٧-١٤٥٥) (ج-د) .

السماء بتحنّ وردتان جميلتان .

إذا متُّ قبلي فلن تُحمل يا بلاتيرو في عربة المنادي إلى المخاضة المتسعة ولا إلى المستنقع الذي في طريق الجبال ، شأن غيرك من الحمير المساكين والخيول والكلاب التي ليس لها من يحبها ، لن تمزق الغربان أضلاعك وتدميها فتصير كهيكل القارب فوق الغروب الأحمر القائم ، وتكون المشهد القبيح للمسافرين في التجارة ممن يذهبون إلى محطة «سان خوان» في عربة الساعة السادسة ؛ ولن تكون ، وقد تورمتَ وجَمُدَتْ في المحارات المطحونة في الهوة ، مثاراً لفزع الأطفال الخائفين المتطلعين حين ينظرون من حافة الطرق ويلوذون بالأغصان ، وحين يخرجون في أمسيات الأحاد إبان فصل الخريف ليأكلوا الصنوبر الذي أنضجته الشمس في الشجر . عش هادئاً يا بلاتيرو ، سأدفنك عند سفح شجرة الصنوبر الكبيرة يحيط بها البستان الذي يروحك كثيراً ؛ ستكون بجانب الحياة المرحية الصافية ، فالأطفال يلعبون والبنات يحكن الثياب في مقاعدهن إلى جانبك ، وستتعلم الأشعار التي تلهمني إياها الوحدة ، وستسمع الصبايا وهن يغنين حين يغسلن ما معهن في حقل البرتقال ، وسيكون صوت الناعورة متعة لسلامك الدائم وبرداً .

وستضع لك العصافير والصفارى والبلابل في تاج الشجرة الأخضر سقفاً قصيراً من الموسيقى بين نومك الهادئ وسماء مغير اللانهاية ذات الزرقة الدائمة .

١٢
الشوكة



دخل بلاتيرو مرعى
الخيّل وهو يعرج فآلقيت
بنفسي على الأرض
ولكن ماذا دهاك يا
صاح؟

فرفع بلاتيرو يده اليمنى
قليلاً وأراني باطن رجله دون
جهد أو ثقل ودون أن يمس
بحافره الرمل المتقد في
الطريق .

ونظرت إليه متوسلاً
أكثر مما يتوسل إليه طبيبه
«داربون» العجوز ، وطويت يده
وأريته باطن رجله الأحمر وقد
انغرزت فيه شوكة طويلة من

شوك البرتقال السليم كأنها خنجر مستدير من الزمرد ، وأخذت أنزع الشوكة
منه وقد تألمت لأله ، ثم مضيت به إلى مسيل السوسن الأصفر لتغسل المياه
الجارية جرحه بلسانها الطويل النقي .

وواصلنا السير بعدئذ إلى البحر الأبيض ، أنا قدامه وهو من ورائي ،
ولا يزال يعرج ويضرب على ظهري ضرباً رقيقاً . . .

ها هي ذي يا بلاتيرو سوداء مرحة في عشاها الرمادي من لوحة عذراء «مونتيمايور» وهو عش مبجل في كل آن ؛ والشقية كأنها مفزعة ؛ كأن البائسة قد ضلت هذه المرة كما ضلت الدجاجات في الأسبوع الماضي وهي تلوذ بأعشاشها حين انكسفت شمس الساعة الثانية ؛ وكان من مظاهر دلال الربيع هذا العام أن استيقظ مبكراً ، ولكنه استبقى عُرْيَه الرقيق وهو يرتعد في فراش مارس الذي يغشاه الضباب ؛ ويحزن النفس رؤية أزهار البرتقال العذراء تجف مع براعمها .

ها هي ذي القنابر يا بلاتيرو ولا تكاد تُسمع كما في الأعوام الأخرى حين يحييها اليوم الأول لوصولها ويثير اهتمامها ، فتتحدث من غير انقطاع في تغريدها المتوالي ؛ تقص على الأزهار نبأ ما شاهدته في إفريقية ، وتروي خبر رحلتها في البحر وهي مستلقية في الماء وقد اتخذت من جناحها شراعاً ، أو هي في مؤخرة القوارب ؛ كما تتحدث عن غروب آخر وعن فجر آخر وعن ليالٍ آخر تلمع فيها النجوم لا يعرفن ماذا يفعلن ، يطرن وهن صامتات ضالات كما يمشي النحل حين يطؤه طفل في الطريق ، لا قبل لهن بأن يصعدن أو يهبطن في الشارع الجديد في خط مستقيم متصل ، مع تلك الزينة في نهايته ؛ كما لا يستطعن أن يدخلن في أعشاشهن بالأبار ولا أن يقفن على أسلاك التلغراف التي تهب عليها ريح الشمال بجانب الحواجز البيضاء في اللوحة المعهودة للقنابر وهن حاملات الرسائل . . .

توشك أن تموت القنابر من البرد يا بلاتيرو!

١٤ الزينة

حين أذهب لرؤية بلاتيرو في وقت الظهيرة يوحد شعاع الشمس الشفاف في الساعة الثانية عشرة خالاً كبيراً من الذهب في ظهره الفضي الغض ؛ وتحت بطنه في الأرض المظلمة بخضرتها المبهمة التي تتلون بلون الزمرد يطر السقف العتيق دنانير من النار .

و«ديانا»* الراقدة بين أرجل بلاتيرو تأتي إلي وهي ترقص وتضع يديها في صدرها راغبة في أن ترطب فمي بلسانها الوردي ، والعنز التي صعدت في أعلى مكان بالمدنود تنظر إليّ متطلعة وقد حنت رأسها الرقيق من جانب ومن آخر في حركة نسائية ؛ وبلاتيرو الذي حياني بنهيق مرتفع قبل دخولي يريد في أثناء ذلك أن يقطع حبله ، وهو صلب ومرح في الوقت ذاته .

وعند الكوة التي تأتي بكنز السميت الوضء بقوس قزح أذهب لحظة مع شعاع الشمس في أعلى إلى السماء من تلك القصيدة ، ثم أصعد بعد ذلك على حجر من الأحجار وأنظر إلى الريف . والمنظر الأخضر يسبح في الضوء المزهر الحالم ؛ وفي الزرقة الصافية التي يحيط بها جدار الفلك يدق ناقوس طليق حلو .

خِصَّة المهر

كان أسود ، وأزهار عباد الشمس أرجوانية وخضراء وزرقاء وكلها فضية ، كالخنافس والغربان ، تتوهج في عينيه أحياناً نار حية ، كالتي في موقد «رامونا» بائعة الكستناء في ميدان «الماركيز» ، يا لدقات ركضه القصير وهو يدخل طريق الرملة ، كأنه مبارز ، من جوانب الشارع الجديد ما أبرعه وأنشطه وما أشد حدته وهو برأسه الصغير وأعضائه الدقيقة!

ومر في عظمة بباب معصرة الخمر وهي أشد سواداً منه في الشمس الملونة للحصن الذي يعد النهاية المضيئة للرواق ، ومضى منطلقاً في مشيه وهو يلعب بكل شيء ، ثم تجاوز جذع شجرة الصنوبر عند عتبة الباب وغزا الفناء الأخضر بالفرح وضوضاء الدجاج والحمام والعصافير ؛ وكان في انتظاره هناك أربعة أشخاص أذرعهم ذات الشعر متقاطعة على صدورهم ، حملوه في جهد تحت شجرة الفلفل وبعد صراع شديد قصير المدى ، فيه حنان أول الأمر ، وأعمى بعد ذلك جذبوه فوق المذيلة ، ثم أخذ «داريون» ، وقد جلسوا جميعاً ، فوقه ، ينجز عمله ، فوضع حداً لرشاقتة الحزينة الساحرة .

جمالك النادر يجب أن يذهب معك

وإذا بقي كان القاضي عليك

كما يقول شكسبير لصديقه :

وهكذا صار المهر الذي أصبح حصاناً ، طريقاً ينضج بالعرق ذابلاً

وحزيناً ، فرفعه رجل واحد ، ثم نقله برفق ، بعد أن غطاه بغطاء ، إلى الشارع .

يا للسحابة المسكينة الباطلة ، يا لشعاع الأمس وهو فاتر وجامد!
مضى كأنه كتاب لا غلاف له ، ونيخيل إلى من يراه أنه ليس فوق الأرض ، فبين الحدة والأحجار عنصر جديد يعزله ويجرده من المنطق كأنه شجرة لا أصل لها ، وذكرى في الصباح العنيف الكامل المستدير ، صباح الربيع .

المنزّل المقابل

لم يكن أمتع يا بلاتيرو في طفولتي من المنزل المقابل لمنزلي الأول في شارع «لاربير» ، منزل «أربورا» السقاء ، بفنائهِ الجنوبي الذي تذهبه الشمس دائماً ؛ ومنه كنت أطل على والبة مشرفاً عليها من الطابية ؛ وربما تركني القوم أذهب ساعة أنا وابنة «أربورا» التي كانت تبدو لي حينئذ امرأة ، وهي الآن مع أنها متزوجة ، لم تتغير في عيني عما كانت عليه وقتذاك وكانت تعطيني الأترج والقُبَل . . ثم في الشارع الجديد الذي صار شارع «كانوفاس» «ثم فراي خوان بيريث» ، منزل «دون خوسيه» حلواني إشبيلية الذي كان يبهمني بحذائه المصنوع من جلد المعز الذهبي ، والذي كان يضع في صبرة بهوه قشر البيض ، وكان يطلي أبواب الدهليز باللون الأصفر الكناري مع أشرطة زرقاء وكان يأتي إلى منزلي أحياناً ويعطيه أبي نقوداً وليس له من حديث معه سوى عن الزيتون . . . ما أكثر الأحلام التي هدهدت فيها طفولتي تلك الفلقلّة التي كنت أراها من شرفتي مليئة بالعصافير فوق سطح منزل دون خوسيه (وكانتا شجرتي فلقل لم أجمع بينهما قط في بصري ، إحداهما تلك التي كنت أراها وتاجها تغمره الريح أو الشمس من غرفتي ، والأخرى تلك التي كنت أراها في فناء دون خوسيه من جذعها . . .) .

ما أمتع ساعات العصر الصافية والأمسيات المطيرة للمنزل المقابل عند كل تغيير طفيف في كل يوم وفي كل ساعة ، وما أعذب النظر إليها من شباكي ومن نافذتي ومن شرفتي في سكون الشارع .

الطفل الأبله



كلما عدنا إلى شارع
«سان خوسيه» وجدنا الطفل
الأبله عند باب منزله جالساً
في كرسيه ينظر إلى
الرائحين والغادين ، كان
طفلاً من أولئك الأطفال
التعساء الذين لم تتأت لهم
قط نعمة الكلمة ولا نعمة
الرحمة ، كان طفلاً فرحاً
تُحْزِن رؤيته ، وهو كل شيء
لأمه وليس شيئاً للآخرين .
ولما هبت ذات يوم على
الشارع الأبيض تلك الريح
الخبیثة السوداء لم أرَ الطفل

عند بابه ، وإذا بطائر يغرد عند عتبة الباب المنعزلة ، فتذكرت حينئذ
«كوروس*» الأب لا الشاعر ، حين بقي من غير طفله وسألته عنه فراشة

(*) مانويل كوروس انريكس . شاعر إسباني يكتب باللغة الجليقية اشتهر بشعره الغنائي وأنغامه العاطفية

فراشة أجنحتها مذهبة . . .

والآن وقد عاد الربيع أفكر في الطفل الأبله الذي ارتفع من شارع «سان
خوسيه» إلى السماء ، ولعله جالس في كرسيه بجانب الأزهار الوحيدة وهو
يرى بعينه ، وقد فتحها مرة أخرى ، السير الذهبي لأمجاد السموات .

كانت ألد متعة «لأنيليا لامنتيكا» التي كان شبابها الغض الهارب أشبه بالراعي الذي لا تنتهي مسراته أن تلبس على صورة الشبح ، فكانت تلف جسمها كله بحلاوة ، وتطلي وجهها السوسني بالدقيق ، وتضع في أسنانها فرائد الثوم .

و حين كنا نفرغ من العشاء ونحن ، بين اليقظة والنوم ، جالسين في القاعة ، تخرج علينا فجأة من السلم الرخامي وهي تمسك بيدها شمعدانا متقدداً ، وتسير بخطى بطيئة وهي صامتة لا تتكلم . وكانت وهي على هذه الصورة كأن عريها قد صار رداء . بلى ، كان مما يثير الفزع صورتها الجنائزية التي تأتي بها من الظلمات العليا ، ولكن في الوقت ذاته كان مما يفتن فيها بياضها المجرد مع مالا أستطيع تصويره من الإفراط الحسي . . .

لن أنسى قط يا بلاتيرو تلك الليلة من ليالي شهر سبتمبر وكانت العاصفة تخفق فوق القرية منذ ساعة كأنها قلب مريض ، وهي تصب الماء والبرد بين الإصرار اليائس للرعد والبرق ففاض الجب وغرق البهو ، ومر آخر الأصحاب : عربية الساعة التاسعة والأرواح وساعي البريد . . . مضيت وأنا أرتعد لأشرب في غرفة الطعام ؛ وفي الخضرة البيضاء للرعد رأيت شجرة الكافور التي لآل «فيلارد» وقد سقطت تلك الليلة وارتمت فوق سطح الطنف .

وما شعرنا إلا وجلبة جافة مفزعة ، كأنها الظل لصيحة ضوء ، تركتنا في عمى وهزت المنزل ؛ ولما عدنا إلى الواقع كان كل منا في مكان غير الذي كان فيه منذ لحظة ، وكأن كلا منا كان وحده دون غاية ودون إحساس

بعاطفة الآخرين ، وكان أحدها يشكو من ألم في رأسه وآخر يتوجع من آلام عينيه ، وثالث من مرض في قلبه . . . ثم أخذنا نعود شيئاً فشيئاً إلى أماكننا .

وابتعدت العاصفة وكان القمر ، وهو بين سحب هائلة تنشق من أعلى إلى أسفل ، يوقد الماء في البهو بالبياض ، وكنا جميعاً ننظر إلى ذلك كله ، وكان الكلب «لورد» يروح ويغدو إلى سلم الفناء وهو ينبح بجنون ، تبغنا . . بلاتيرو وإذا أسفل الدار إلى جانب زهرة الليل المبللة التي كانت تفوح برائحة تزكم الأنف ، «بأنيليا» وهي في هيئة الشبح ميتة ولا يزال الشمعدان متقدماً في يدها السوداء من الشعاع .



مشهد أرجواني

القمة . هنالك الغروب كله أرجواني ، مجروح بزجاجه الذي يسيل منه الدم في كل مكان ؛ وفي روائه شجرة الصنوبر الخضراء تثور وتتلون باللون الأحمر ؛ والأعشاب والأزهار المتقدة الشفافة تعطر اللحظة الجليلة بإكسير مبلل ، نفاذ ومضيء .

ولبثت مذهولاً في الشفق . أما بلاتيرو وقد ملأ لون الغروب الأرجواني عينيه السوداوين . . . فمضى على مهل إلى غدير مياه ذات ألوان حمراء ووردية وبنفسجية وأغرق فمه برقة في المرايا التي يخيل إلى المرء أنها تسيل حين يمسه ، وكأنما ستدفق في حنجرتة الهائلة مياه قائمة من الدم .

المكان معروف غير أن اللحظة تنيره وتجعله غريباً أثرياً يعج بالضوضاء ، بحيث يجوز أن يقال في كل ساعة إننا بسبيل أن نكتشف قصراً مهجوراً . . . المساء يتناول إلى ما وراءه ، والساعة ، وقد اكتسبت الخلود ، لا نهائية هادئة لا يحس بها أحد . . . هلم يا بلاتيروا .

البيغاء

كنا نلعب مع بلاتيرو والبيغاء في بستان صاحبي الطبيب الفرنسي حين جاءت إلينا من أسفل الطريق امرأة في مقتبل العمر مضطربة قلقة ، وقبل أن تصل إلينا ، وهي تتطلع إليّ بنظر أسود فيه كآبة ، سألتني :

- أيها السيد هل الطبيب موجود هنا؟

وكان يتبعها أطفال هيتهم رثة ينظرون في كل لحظة ، وهم يلهثون ، إلى أعلى الطريق ، وخلفهم رجال يحملون رجلاً مصفراً متهاكاً . إنه صياد مُستخف من أولئك الذين يصطادون الوعول في أرض «دُنيانا» ، وقد انطلقت فيه رصاصة من بندقية عجيبة مشدودة بحبل ، والطلقة في ذراعه . وأقبل صديقي على الجريح في حنان فنزع عنه خرقاً بالية ، وغسل عنه الدم وأخذ يتحسس عظامه وعضلاته ، وكان يقول لي من حين لآخر :

- لا شيء ...

وسقط الماء ، وأخذت تقبل من والبة رائحة الغدير والقطران والسمك ... وأشجار البرتقال تلف المغرب الوردي بقطيفتها القرمزية ؛ وفي إحدى شجرات اللعل الخضراء أخذت البيغاء الخضراء والحمراء تروح وتحجى وهي ترمقنا بعينيهما المستديرتين .

أما الصائد المسكين فقد ملأت الدموع الدافقة عينيه بالشمس وكانت تنطلق منه أحياناً صيحة مكبوتة ، والبيغاء تقول :

- لا شيء ...

ووضع صاحبي للجريح القطن والضمادات . . .

والإنسان البائس يصيح :

- أي أي!

والببغاء بين أشجار اللعل تقول :

لا شيء . . . لا شيء . . .

السطح

أنت يا بلاتيرولم تصعد قط إلى السطح ، ولا تستطيع أن تتصور التنفس العميق الذي يتسع به الصدر حين يحس المرء إذ يطلع إلى السطح من الدرج الخشبي المظلم ، بأنه يحترق في شمس النهار الحامية ، وغارق في الزرقة كأنه في السماء ، وأعمى من بياض الجير الذي تطلّى به - كما تعلم - الأرض الحجرية حتى تكون مياه السحب التي تندفق إلى الجب نقية صافية . ما أمتع السطح إن أجراس البرج تدق في صدورنا على مستوى قلبنا الذي يخفق بشدة .

وتترأى من بعيد في الكروم المناجل وهي تلمع ، وتتطاير منها شرارة من فضة وشمس ، ومن هذا الموضع يشرف المرء على كل شيء ؛ على السطوح الأخرى والأفنية حيث يُشغل كل بما لديه : صانع الكراسي والرسام وصانع البراميل ، وشيات الأشجار في الأفنية مع الثور أو العنز ، والمقبرة التي تصل إليها أحياناً جنازة صغيرة مزدحمة سوداء لشخص لا يؤبه له ، والنوافذ التي تطل منها فتاة في قميصها وتمشط شعرها وهي غافلة تغني ، والنهر مع قارب لا ينتهي دخوله فيه ، والأهراء التي يردد فيها موسيقي منفرد الأنغام من ناي معه ، أو حيث الحبُّ العنيف يجعل أصحابه بين صريح وأعمى ومغلق ...

المنزل يختفي كأنه طابق أرضي ؛ ما أعجب الحياة الدارجة في الأرض حين ينظر إليها المرء من السقف الزجاجي : فالكلمات والنضوء والحديقة

ذاتها كلها رائعة الجمال منه! أما أنت يا بلاتيرو فإنك تشرب من الحوض
دون أن تراني ، أو تلعب كالأبله مع العصفور أو السلحفاة!

كلانا جاء يحمل من الجبال شيئاً : بلاتيرو يحمل المردوش* ، وأنا أحمل السوسن .

هبط مساء إبريل وكل ما في المغرب كان بلوراً من الذهب ثم صار بلوراً من الفضة ، قصة شعرية منطلقة ومضيئة صيغت من سوسن البلور : ثم بعد قليل صارت السماء كأنها لازورد شفاف قد استحال إلى زمرد . فأبت وأنا حزين . . . كان لبرج القرية المتوج بالزليج الوضاء وهو يتراءى في الطريق الصاعد إلى الجبل في مطلع الساعة الصافية منظر أثري يأسر الأبواب ، فكأنه عن كذب «الداخير**» تبدو من بعيد ، وقد لقي فيها حنيني إلى المدن الذي يشتد مع الربيع ، سلوى حزينة .

عودة . . . إلى أين؟ وم؟ ولم؟ . . غير أن السوسن الذي كنت أحمله كان أكثر فوحاً في لين الليلة الداخلة ، كان يفوح بعطر أكثر نفاذاً وغموضاً من الذي يخرج من الزهرة دون أن تُرى الزهرة ، زهرة كلها عطر يُسكر الجسد والروح من الظل المنفرد .

قلت -يا روحي ، يا سوسنة في الظل! ولم ألبث أن فكرت في بلاتيرو الذي نسيني كأنه بعض جسدي مع أنه تحتي .

(*) نبات يعرف بالصعتر البري واسمه بالإسبانية مشتق من العربية (ل-ع)

(**) مارة جامع إيسيلية الذي حُوّل إلى كندرائية وهي من روائع الفن الإسلامي في إسبانيا (ل-ع)

الشباك المغلق

كنا كلما مضينا إلى معصرة «ديثمُو» للخمر طُفْتُ بالجدار الذي في شارع «سان أنطونيو» وجئت إلى الشباك المطل على الحقول ، فكنت أضع وجهي على قضبان الحديد وأنظر بمنة ويسرة ، وأطلع بعيني وأنا أحملق لأرى ما يستطيع بصري رؤيته ، وكان يخرج من أسفله طريق متآكل ضائع بين نبات القراص والخبازي ثم ينمحي وهو يهبط في شارع «لاس المجستياس» ، ويحيط به من أسفله طريق ضيق وعميق لم أمر به قط . . .

يا له من سحر أن يرى المرء خلف إطار الحديد الذي في الشباك الطبيعة والسماء اللتين في خارجه ، كأن سطحاً وجداراً من الوهم ينتزعان المنظر من بقية الأشياء ليتركاه وحده من خلال الشباك المغلق! . . ويتراءى الطريق بقنطرته وأشجار الحور التي يكسوها الدخان وفرن الآجر وتلال «بالوس» وسفن «والبة» وفي المساء تتراءى أنوار الميناء في «ريوتنتو» وشجرة الكافور العظيمة المتفردة التي لآل «أريوس» فوق الغروب البنفسجي الأخير . . .

قال لي الخمارون وهم يضحكون إن الشباك لا مفتاح له . . . وكنت في أحلامي التي تقترن بالتباس الفكر حين يسري دون هدف معلوم ، أرى الشباك مطلاً على أروع الجنات وأجمل الحقول . . . وكما حاولت ذات مرة ، وأنا مؤمن بمنامي ، أن أهبط وأنا طائر على الدرج المرمري ، كنت أذهب ألف مرة مع الصباح إلى الشباك وأنا موقن بأنني سأجد خلفه ما خلطه خيالي بالحقيقة لا أدري أردت ذلك أم لم أرده . . .

دون خوسيه القسيس

ها هو ذا يا بلاتيرو يمضي مباركاً يتحدث بلسان عذب ، ولكن الشيء الملائكي في الواقع إنما هو أتانه ، السيدة .

أظنك رأيته ذات يوم في بستانه وعليه سراويل كسراويل الملاح وقبعة عريضة ، وهو يقذف الصبية الذين يسرقون البرتقال بالأحجار والألفاظ ، ورأيت صاحب منزله «بالتزار» المسكين في أيام الجمع ألف مرة وهو يعجز كسره في الطرقات كأنه نفاخة في السرك حتى ينتهي إلى القرية لبيع هناك مكانسه الحقيبة أو ليصلي مع الفقراء من أجل موتى الأغنياء . . . لا يبلغ إنسان مبلغه في سوء السمعة ، ولا يثير السماء بأيمانه أحد مثلما يثيرها .

والحق أنه يعلم من غير شك أو على الأقل هذا ما يقوله في صلاته التي تقام في الساعة الخامسة ، مكان كل شيء وهيئته هنالك . . . الشجرة والتلعة والماء والريح والشمعة ، وكل أولئك ، في لطفه ولينه وجدته وصفائه وحيويته ، يبدو له مثلاً للقوضى والصلابة والبرودة والعنف والخراب ؛ وفي كل يوم تستقر أحجار البستان أثناء الليل في مكان غير مكانها وهي تنطلق في عداوة غاضبة على الطيور وغاسلات الثياب ، وعلى الأطفال والأزهار . وعند الصلاة يتغير كل شيء ، فصمْتُ دون خوسيه يُسمع في صمت الريف ، فيلبس ثوبه ومسوحه وقبعته ؛ ودون أن ينظر إلى شيء يدخل القرية المظلمة وهو على أتانه البطيئة كأنه يسوع في الموت . . .

يا لها من أضواء وعطور!
عجباً للمروج وهي تضحك!
وأناشيد الصباح وهي تتردد!
مقطوعة شعرية شعبية

يقض مضجعي وأنا نائم مؤرق الصَّباح الشيطاني للصبية ، فينتهي بي الأمر وقد ذهب عني النوم إلى أن أنهض من فراشي وأنا يائس ، وعندئذ لا أكاد أنظر من النافذة حتى أدرك أن الصائحين طيور .
أخرج إلى الحقل وأنشد : الحمد لله رب اليوم الأزرق . نغمٌ طليق ترده القمم ، غض لا نهاية لها القنبرة تُرغي وتزبد بصياحها على هواها في البئر ، والشحرور يغرد فوق شجرة البرتقال الساقطة ، والصفارية تتكلم من النار وهي تنتقل من شجرة عفص إلى أخرى ، والطائر الأخضر يضحك ضحكاً طويلاً متصلاً في قمة شجرة الكافور ، والقناير تتناقش في شجرة الصنوبر الكبيرة نقاشاً لا ينتهي .

ما أجمل الصباح! الشمس تسكب على الأرض بهجتها الفضية والذهبية ، والفراشات المتعددة الألوان تلعب في كل ناحية بين الأزهار ، وفي الينبوع بالدار ، ظاهره وباطنه ؛ والريف الذي كان يفيض أضواءً وأصواتاً وينبوعاً للحياة السليمة الجديدة .

يُخِيل إلينا أننا في شعاع كبير من الضوء كأنه باطن وردة متَّقدة ، وردة
كبيرة حارة .

انظر إليه ، إنه يا بلاتيرو مليء بمياه المطر الأخيرة ، لا صدى فيه ، ولم يعد يتراءى في أعماقه ، كما هو الشأن والماء فيه منخفض ، منظر الطبيعة مع الشمس ؛ تحفة متعددة الألوان تبدى خلف قطع الزجاج الصفراء والزرقاء التي يتركب منها السطح .

أنت يا بلاتيرو لم تهبط قط في الجب ، أما أنا فقد هبطت فيه حين أفرغ من الماء منذ سنين ، انظر ، فيه عمر طويل ، تتلوه حجرة صغيرة ؛ ولما دخلتُ فيه انطفأت الشمعة التي كنت أحملها ورأيتُ في يدي شيئاً يحترق ، وتلاقت في صدري هبتان من الريح البارد كأنهما سيفان متقاطعان تقاطع عظمتين تحت جمجمة

والقرية كلها يا بلاتيرو تفيض بالآبار والممرات ، ولكن الجب الأكبر هو الجب الذي في بهو «سالتود للوبو» . في ميدان القلعة القديمة ، وأحسن جب هو الذي في داري ، وفمه - كما ترى - مصنوع من قطعة واحدة من المرمر الأبيض ؛ وممر الكنيسة يمتد إلى كرمة «لوس بُنتالس» ومن ثم يتجه إلى الريف بجانب النهر ، وأما الذي يخرج من المستشفى فلم يجروُ أحد على أن يتبعه لأنه لا ينتهي قط . . .

واني لأذكر أنا طفل ليالي المطر الطويلة وكان يؤرقني فيها الخربُرُ

* البئر وقد اُقتبأ على لفظ الجب لوروده في الاصل الاساسي (ل-ع)

المنتحب للماء المستدير وهو يسقط من السطح في الجب ؛ فإذا كان الصباح
مضيئاً كالمجانين لنرى إلى أين انتهى الماء ، حتى إذا بلغ فم الجب كما هو
الآن ، فياللروعة إذن وباللصيححات وباللعجب العجائب!

... حسن يا بلاتيرو ، والآن هلم لأعطيك شربة من هذا الماء الصافي
الغض كالشربة التي شربها «فليجاس» دفعة واحدة ، «فليجاس» المسكين
الذي احترق جسده من الكونياك والزبيب ...

الكلب الأجير

كان يجيء أحياناً إلى الدار قادماً من الحقل وهو هزيل يلهث ،
فالمسكين يمشي دائماً كأنه هاربٌ قد اعتاد الزجر والرمي بالأحجار ،
والكلاب أنفسها تهدده وتوعده ؛ وربما ذهب ذات مرة في شمس الظهيرة
أسفل الجبل وهو بطيء حزين .

في مساء ذلك اليوم جاء في أثر «ديانا» وخرجت فإذا بالحارس وقد
استبد به الغضب يستل بندقيته ويطلق عليه رصاصة لم يتسع الوقت
لأجنبه إياها ، فراح البائس والرصاصة في أحشائه يتقلب وينبعث منه نباح
حاد مؤثر ، ثم سقط ميتاً تحت شجرة طلع .

وظل بلاتيرو ينظر إلى الكلب ولا يحول بصره عنه وقد رفع رأسه ، أما
«ديانا» وقد استولى عليها الخوف فراحت تمشي وهي تستخفي من مكان
لآخر ، وأخذ الحارس ، ولعله أحس بالندم ، يبسط الحجج وهو لا يدري لمن ،
ويتسخط دون أن يستطيع ، ويريد أن يسكت وخز الضمير ، وبدت الشمس
وكان حجاباً يجللها بالسواد ، حجاباً كبيراً كالحجاب الصغير الذي ظلل
العين السليمة للكلب القليل .

وهدت ريح البحر أشجار الكافور ، فأخذت تبكي بشدة كلما هبت
عليها العاصفة في الصمت الساحق العميق الذي بسطته ساعة الغروب في
الريف الذهبي على الكلب الميت .

انتظر يا بلاتيرو . . . أو فلتَخْطُ قليلاً في هذا المرج الرقيق إن شئت ،
ولكن دعني أرسل بصري في هذا الغدير الجميل الذي لا أراه منذ
سنين . . .

انظر كيف تضيء الشمس ، وهي تمر على مائه الكثيف ، الجمال
العميق للخضرة الذهبية ، وتتأملها أزهار الزنبق بنضارتها السماوية على
الشاطئ وهي مأخوذة . . . إنها سلالم من الخمل تهبط في قصر متكرر من
قصور التيه ؛ وكهوف سحرية فيها جوانب مثالية تصورها أساطير الأحلام
للتخيل الطليق الذي تنبعث به نفس رسام باطني ؛ وجنات من جنات
فينوس تخلقها الكآبة الدائمة للمكة مجنونة عيونها كبيرة خضراء ؛ وقصور
من أطلال كتلك التي رأيتها في ذلك البحر المسائي والشمس الأفلة تجرح
الماء الواطئ وهي تزور عنه . . . بل هناك ما هو أكثر وأكثر وأكثر . . . ما أقدر
أشق الأحلام على أن تسلب ، وهي تجذب الجمال الهارب من رذائه
اللانهاثي ، اللوحة المذكورة لساعة من ساعات الربيع بألم في إحدى جنات
النسيان التي لا وجود لها قط . . . كل ما هنالك صغير لكنه هائل لأنه يبدو
بعيداً ؛ مفتاح لإحساسات لا حصر لها ، وكنز لساحر الحمى المعمر . . .

كان هذا الغدير قلبي من قبل يا بلاتيرو ، هكذا أحسست به وهو
مسموم بجمال في وحدته ، من فيض الطاقات الرائعة المكبوتة . . . ولما
جرحه الحب الإنساني وقد فتح السد الذي فيه جرى الدم الفاسد حتى

كه صافياً نقيّاً سهلاً كنهير «اليانوس» يا بلاتيرو في أشد ساعات أبريل
فتاحاً ولمعناً ذهبياً وحرارة .

ومع ذلك فربما أتت به يد شاحبة من أيدي الزمان الماضي إلى غديره
قديم الأخضر المنفرد مستجيباً للنداء الصريح «من أجل أن يخفف ألمه» كما
هل هيلاس مع السيديس في قصيدة شنييه* التي قرأتها لك بصوت «مبهم
مذبذب» ...

* أندريه شنييه شاعر فرنسي ولد في القسطنطينية . عرف بمراثيه وقصائده في الحب (١٧٦٤ -

قصيدة أبريل

مضى الأطفال مع بلاتيرو إلى مسيل أشجار الحور ، وها هم الآن يأتون به وهو يركض بين عيث لا علة له ، وضحكات لا حدود لها ، وقد حُمِّل بالأزهار الصفراء ؛ هنالك في أسفل الوادي أمطرتهم السماء من تلك السحابة الهاربة التي ظللت المرج الأخضر بخيوطها الذهبية والفضية وارتجف لهم قوس قزح كأنه في مزهر يبكي ، وكؤوس الزهر المسلة لا تزال تقطر ماء على شعر الحمار المبتل .

يا لها من قصيدة غضة فرحة عاطفية!! حتى نهيق بلاتيرو وقد رق وهو تحت هذا الحمل الحلو المطير . وهو من حين لآخر يدير رأسه وينتزع الأزهار التي يبلغها بقمه ؛ والكؤوس البيضاء والصفراء تعلق قليلاً بالزبد المخضر الذي يخرج من فمه ، ثم تنتقل إلى بطنه المشدود بحزام . . . من مثلك يا بلاتيرو يستطيع أن يأكل الزهر . . . ثم لا يصيبه منه سوء!

يا له من مساء مبهم من أمسيات أبريل . . . وعينا بلاتيرو اللامعتان اللتان تنبضان بالحياة تعكسان كل ما في ساعة الشمس والمطر ، التي تتراءى في غروبها على ريف «سان خوان» سحابة وردية أخرى تمطر خيوطاً ممزقة .

الكناري يطير

ذات يوم طار كناري أخضر من قفصه دون أن أدري كيف ولم . كان كنارياً عجوزاً وذكرى حزينة لأنثى من جنسه ميتة ؛ لم أهبه الحرية خشية أن يموت من الجوع أو من البرد أو خوفاً من أن تأكله القطط .

وظل يطوف طول اليوم بين أشجار الرمان في البستان وفي شجرة الصنوبر التي بالبواب وعند الشجيرات ذات الأزهار البيضاء والحمراء ، وظل الأطفال ، وهم جالسون في الممر طول يومهم أيضاً ، يتعجبون من الطيران القصير للطائر المصفر ، أما بلاتيرو وهو يستمتع بحريته ، فقد اتخذ مكانه بجانب أشجار الورد وراح يلعب مع إحدى الفراشات .

وفي المساء جاء الكناري إلى سطح المنزل الكبير ولبث هناك وقتاً طويلاً وهو يخفق في الشمس الفاترة التي جنحت إلى الغروب ، ثم إذا به يظهر في القفص مرة أخرى وهو فرح دون أن يدري أحد كيف ولم .

أي جلبة عندئذ في البستان! فالأطفال يشبون ويصفقون وقد احمرت وجوههم وعلت ضحكاتهم كأن كلا منهم الفجر الطالع ، وتبعتهم «ديانا» وهي مجنونة تنبح على صليل جرسها الضاحك . وأما بلاتيرو فقد غمره ما غمر سواه فراح يتهدج وهو يموج في لحم من فضة كأنه زرزور ، ويتحرك على أرجله في فالس ساذج ، ثم جمع يديه وأخذ يرفس الهواء الصافي الرفيق ...

القيطاه

ظهر الحمار فجأة بزقاق «ترأسُمورو» يركض ركضاً شديداً منفرداً ، وقد ازدوج سواده في سحابة عالية من الغبار ، وبعد ذلك بقليل ظهر الصبية وهم يلهثون من الإعياء ، ويرفعون سراويلهم الساقطة الممزقة التي تكشف عن بطونهم المغبرة ، وراحوا يرمونه بالقصب والأحجار ...

كان أسود كبيراً عجوزاً كثر العظام -كاهن آخر- بحيث يبدو كأن الشعر سينزع منه في كل موضع من جسمه ؛ وقف وكشف عن أسنان صفراء كأنها حبات الفول وأخذ ينهق بشدة نهيقاً عالياً بطاقة لا تناسب شيخوخته التي لا رشاقة فيها ...

هل هو حمار ضال؟ ألا تعرفه يابلاتيرو؟ تُرى ماذا يريد؟ من أين أتى هارباً في هذا الخب المتباين العنيف؟

ولما رآه بلاتيرو وخاف منه رفع أولاً أذنيه بحيث التقى طرفاهما ، وأطلقهما بعد ذلك ، فهبطت إحداهما وبقيت الثانية معلقة ، ثم أقبل نحوي يريد أن يستخفي في حفرة بجانب الطريق ويلوذ بالفرار دفعة واحدة ، فمر الحمار الأسود بجواره ورفسه وأسقط البردعة ، وشمه ونهق في حائط الدير ، ومضى يركض أسفل الزقاق ...

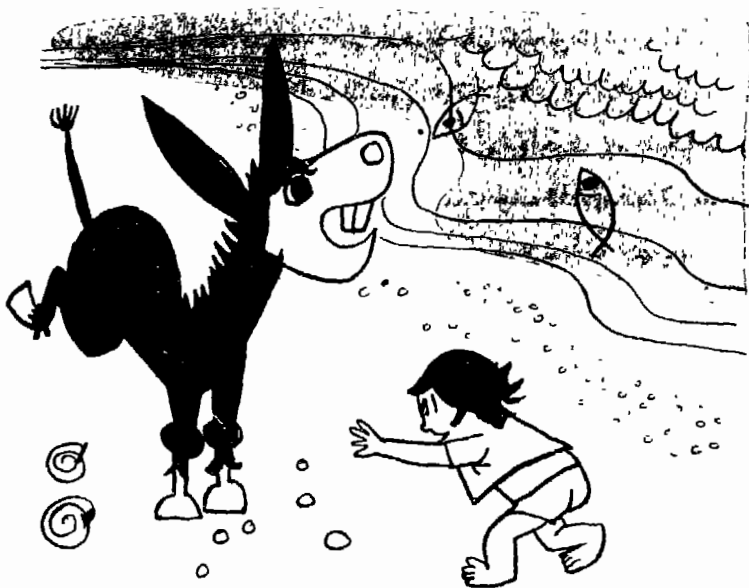
في الحرارة لحظة غريبة من الرعدة -بالنفسي ويا لبلاتيروا- تبدو الأشياء فيها متغيرة ، كأن ظلاً منخفضاً من قماش أسود حيال الشمس يخفي على حين غرة الوحدة التي تُعشي الأبصار في ركن الزقاق الذي

ينخنق فيه الهواء الأنفاس حين يهدأ فجأة... ثم إذا بالبعيد يعود بنا شيئاً فشيئاً إلى الواقع، وتُسمع من أعلى أصوات متباينة في حلقة السمك فالبائعون الذين جاؤوا إلى الشاطئ راحوا يحسنون ما معهم من سمك البربوني والمرجان والتن؛ كما كان يسمع ناقوس العودة وهو يدعو للصلاة الصباح وصفارة سنان الآلات الحادة...

وبلاتيرو لا يزال يرتجف من حين لآخر وهو ينظر إليّ خائفاً في السكون الآخرس الذي شملنا دون أن أدري سبباً لذلك..

- يا بلاتيرو، أعتقد أن هذا الحمار ليس حماراً...

وبلاتيرو ساكت يرتجف كله مرة أخرى رجفة واحدة وله ضجة غضة، وينظر إلى الحفرة وكأنه هارب ينفر على استحياء...



الحديقة

كان مما استرعى اهتمامي التائه في أزهار الطريق الضيق طائر مليء بالضوء ما فتئ يفتح جناحيه الأسيرين بألوانهما المتعددة على المرج الأخضر الرطب ، فاقتربنا منه على مهل ، أنا من قدام وبلاتيرو خلفي ، وكان هناك مشرب للطير ظليل وصبية خونة ألقوا شبكة للطير ، فنهض المسكين يصيح بمنتهى ألمه وينادي إخوانه في السماء دون أن يريد .

وكان الصباح صافياً نقياً قد تجاوز اللون الأزرق ؛ وترامى من شجرة الصنوبر المجاورة ترنيم خفيف مثلث مجيد أخذ يقترب ثم يبعد قبل أن يتبدد ، في ريح رقيقة ذهبية راحت تتموج منها كؤوس الزهر ؛ ياله من نغم فقير بريء قريب جداً من القلب المريض !

امتطيت بلاتيرو ودفعته برجلي إلى المشي ، وأخذنا نصعد إلى شجرة الصنوبر وهو يركض ركضاً حاداً ؛ ولما وصلت تحت تاجها الوارف الظليل جعلت أصفق وأغني وأصيح ، وغمر بلاتيرو ما غمرني فأخذ ينهق بشدة مرة ومرة ، وكانت الأصدااء تردد الصوت في عمق وجلجلة كأنها في قاع بئر كبير ، ومضت الطيور إلى شجرة صنوبر أخرى وهي تغرد .

وأما بلاتيرو فقد راح يمسح ، بين اللعنات البعيدة للصبية الأشقياء برأسه الكثيف الشعر ، على قلبي مزجياً لي الشكر حتى أذى صدري .

انظر إليهم يا بلاتيرو وقد مدّوا أجسامهم كلها كما تمد الكلاب
المكدودة ذيولها في شمس الرصيف .

فالفئة التي كأنها تمثال من الطين ، وقد انسكب عُريها النحاسي بين
فوضى أسمالها الصوفية التي تموج بألوان خضراء وحمراء قائمة راحت تنتزع
العشب الجاف الذي تبلغه يداها اللتان في سواد قاع القدر ، وكانت
الصغيرة ، وهي شَعْرُ كلها ، ترسم في الجدار بالفحم صوراً رمزية ساذجة ،
والصغير يبول في إنائه كينبوع يتدفق ، وهو يبكي على هواه ، والرجل والقرد
يتناوشان ، هذا يحك خصلة الشعر وهو يتمتم بكلمات لا تسمع ، وذاك
يحك الأضلاع كأنه يجس قيثاراً .

والرجل من حين لآخر يقعد ثم ينهض ويمضي بعدئذ إلى قلب الشارع
ويضرب الطنبور بقوة متراخية وهو ينظر إلى شرفة ، أما الفتاة التي جعل
الصبي يضربها فراحت تغني ، وهي تحلف في غير حياء ، بنغم متكرر نشاز ،
والقرد الذي كانت سلسلته أثقل من جسمه بحيث فقد صوابه يدور حول
نفسه ثم يعمد إلى البحث بين أحجار النهر الصغيرة عن أشدها لنا .

الساعة الثالثة . . . وعربة المحطة تمضي أعلى الشارع الجديد ، والشمس

وحدها .

* طائفة من الفجر قيل إن أصلهم من الهند ويطلق عليهم في إسبانيا المحريون Los Hungaros لأنهم وحدوا في
المجر مثوى لهم (ل-ع) .

إليك يا بلاتيرو المثل الأعلى لأسرة «أمارو» .. رجل كشجرة البلوط
قوة يحك قرداً ، وامرأة كقدر من الفخار ترتقي على الأرض ، وصغيران : غلام
وبنت يقفوان أثر أبناء جنسهما ، وقرد صغير ضعيف كالعالم ، يجلب الرزق
للكل ، ولا يأخذ إلا البراغيث ...

الحبيبة

تصاعد ريح البحر الصافية في الطريق الأحمر وتنتهي إلى مرج التل ،
وتضحك بين الزهيرات الرقيقة البيضاء ، ثم تمد خيوطها في شجيرات
الصنوبر دون نقاء وتحرك بيوت العنكبوت السماوية المتقدة والورود الذهبية
فتنفخ فيها كأنها شموع دقيقة . . . والمساء كله ريح بحرية ، والشمس والريح
تكفلان رفاهية غضة للقلب .

بلا تيرو يحملني وهو مسرور متهلل طيب النفس بذلك ، بحيث جاز أن
يقال إنني لا أثقل عليه ، وأخذنا نصعد إلى التل كما لو تركنا الطريق الضيق
أسفلنا ، وتراءت لنا من بعيد شقة من البحر لامعة لا لون لها ، وهي ترتجف
بين أشجار الصنوبر الأخيرة في مثل منظر الجزيرة ، وهنالك في المروج الخضر
تشب الحمر المشدودة من شجيرة إلى شجيرة .

وتضطرب الوديان بحركة حسية ، ثم إذا ببلا تيرو يرفع أذنيه ويمد أنفه
ويطويه حتى يبلغ عينيه ، ويكشف عن حبات الفول الكبيرة في أسنانه
الصفراء ، إنه يتنفس طويلاً من الجهات الأربع ما لا أدري من إكسير عميق
لا بد أنه ينتقل إلى قلبه . بلى . ها هي المحبوبة في تل آخر ، رقيقة رمادية
فوق السماء الزرقاء ، وإذا بنهيق مزدوج طويل مدوّ بمزق بضجته سكون
الساعة المضئئة ، ثم يهوي بعد ذلك كشلالين توأمين .

كان لا بد لي أن أوازن الغرائز اللطيفة لحماري المسكين بمثلها ، فحبيبة
الريف الجميلة تراه ، حين تمشي حزينة مثله ، بعينيها اللتين من كهرباء

سوداء ، وهما مثقلتان بالإحساسات . . . نداء باطل غامض يجوب أزهار
الأقاحي في قسوة كأنه غريزة صورت لحماً طليقاً .
وبلاتيرو يركض بشدة وهو يحاول في كل أن أن يعود ، مع لوم في
ركضه الدقيق المكبوح .
- يبدو أنه كذب ، يبدو أنه كذب ، يبدو أنه كذب . . .

الدودة التي تمص الدم

انتظر . ما هذا يا بلاتيرو؟ ماذا بك؟ بلاتيرو يقذف الدم من الفم ؛ يسعل ويبطئ في سيره ؛ أدركت كل شيء في لحظة ، ولما مر هذا الصباح بينبوع «بنيتي» شرب منه . وهو وإن كان يشرب دائماً من الماء الصافي وأسناناه مقفولة إلا أنه من غير شك قد علقت بلسانه أو بسقف فمه دودة من الدود الذي يمص الدم . . .

- انتظر يا صاح . أرني . . .

طلبت العون من «رابوسو» التجار وهو هابط في طريقه هنالك قادماً من «المندرال» وحاولنا فيما بيننا أن نفتح لبلاتيرو فمه ولكنه كان كالمشدود يملأط وعلمت مع ألم أن بلاتيرو المسكين أقل ذكاء مما كنت أتصور . . . ثم أخذ «رابوسو» عصا غليظة وقسمها أربعة أجزاء وحاول أن يدخل قطعة في فم بلاتيرو بين فكيه . . ولم يكن الأمر يسيراً ، فرفع بلاتيرو رأسه ونهض على قدميه وهرب واضطرب . . . وأخيراً إذا بالعصا تدخل من جانب في فم بلاتيرو ، وبعدئذ يصعد «رابوسو» نحو الحمار ويشدّ بيديه على طرفي العصا إلى الوراء حتى لا يفلت بلاتيرو .

بلى ، هنالك في فمه الدودة الممتلئة السوداء ؛ وأخذت أنزعها بفرعين من شجرة الكروم اتخذت منهما ما يشبه المقص . . . وكانت مثل قطعة من طين أحمر أو زق من نبيذ أحمر ، وتبدو في الشمس كأنها عرف الديك الرومي استثير بقماش أحمر ، ولكيلا ينتقل منه دم إلى حمار آخر قطعت

العلقة فوق المسيل ، وصبغ دمُ بلاتيرو زَبَدَ دوامة قصيرة فيه باللون
الأحمر...

العجائز الثلاث

اصعد يا بلاتيرو في هذا السياج ، امض كي نفسح الطريق لهؤلاء
العجائز الثلاث اليائسات . . .

لا بد أنهن يأتين من الشاطئ أو من الجبال ، انظر ، إحداهن عمياء
والآخرى تأخذانها من ذراعيها ، لعلهن جئن ليقابلن «دون لويس»
الطبيب أو يدخلن المستشفى . . . انظر إليهن كيف يمشين على مهل . أي
حذر يبدو عليهن ، وأي سكينه تغمر اللتين تبصران ؛ يخيل إلى من يراهن
أنهن يخشين الموت نفسه ، ألا ترى كيف يحركن أيديهن من أمامهن
كأنهن يحاولن أن يمسكن الهواء ذاته ليدفعن عن أنفسهن أخطاراً يتخيلنها
في صورة تدعو إلى العجب ، حتى لكأنهن يا بلاتيرو يخفن من الأغصان
الغضة عليها أزهارها!

أمسك عليك نفسك يا صاح حتى لا تقع . . . اسمع ما ينطقن به من
كلمات حزينة . إنهن من الغجر ، انظر إلى ثيابهن المزركشة ذات الخطوط
والوشى ، ألا ترى أنهن يمشين بقوام ممشوق رغم كبر سنهن ، سوداوات
ينضج منهن العرق ، مغبرات ضائعات بين التراب وشمس الظهيرة ، ولا
يزال يرافقهن حسن صعيق ذابل كأنه ذكرى جافة قاسية . . .

انظر إلى ثلاثتهن يا بلاتيرو . . . بأي ثقة يحملن الشيخوخة إلى الحياة
وقد تغلغل فيهن الربيع الذي يصفر منه الحسك في غمار الحلاوة المهتزة
لشمسه الملتهبة!

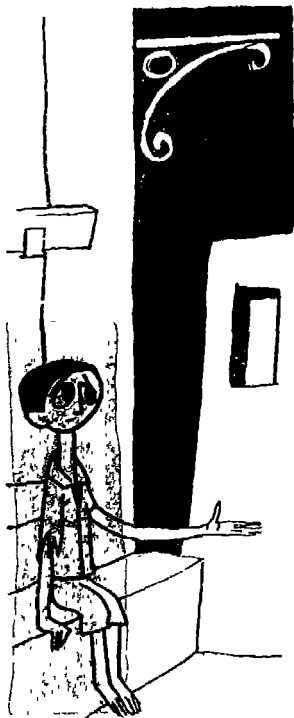
العربة الصغيرة

لقينا في المخاضة الكبيرة التي مدتها الأمطار إلى الكرم عربة صغيرة قديمة معطلة ، وضائعة تحت حمل من العشب والبرتقال ، وبجانبها طفلة منهوكة متسخة تبكي فوق العجلة وتريد أن تساعد بصدرها الفضي الحمار الذي هو أصغر ، أه ، وأضعف من بلاتيرو ؛ والحمار يندفع حيال الريح ويحاول دون جدوى أن ينتزع العربة من وحل الطريق على صياح الصبيّة وهي تنتحب ، ولكن جهدها كان ضائعاً ، جهد الأطفال الشجعان وكأنه هبوب نسيمات الصيف المكدودة التي تسقط في إعياء بين الأزهار . أخذت أداعب بلاتيرو وأنشطه وفعلت ما استطعت لأربطه بالعربة أمام الحمار المسكين ، وحملته على ذلك برفق ، وشد العربة والحمار من الوحل وجرها إلى أعلى الطريق .

يا لإشراق الصبيّة! كانت كأن شمس المساء التي تكسرت عند أفولها بين سحب الماء في بلور أصفر يوقدها فجر خلف دموعها المسودة . وبفرحتها الباكية أعطتني برتقالتين رقيقتين مستديرتين ثقيلتين في الوزن انتخبتهما لي فأخذتهما شاكرًا وأعطيت الحمار الضعيف إحداهما كعزاء حلوه ، وأعطيت بلاتيرو الأخرى جائزة ذهبية له .

قلت لك يا بلاتيرو إن النبيذ روح
مغير ، هل هذا صحيح حقاً؟ كلا ، إن روحها
هي الخبز ، فمغير شبيهة بخبز القمح وهو
أبيض من الداخل ، كلبٌ كل شيء ؛
ومذهَّب من الخارج -يا للشمس السمراء ،
كقشرة الشجرة اللينة .

وفي وقت الظهيرة حين تحرق الشمس
أكثر ، يتصاعد الدخان من أنحاء القرية
وتفوح منه رائحة الصنوبر والخبز الساخن ،
 ويفتح كل امرئ في القرية فمه ، فتصبح
القرية كأنها فم كبير يأكل لقمة كبيرة ،
 ويدخل الخبز في كل شيء : في الزيت وفي
طبق «الجزباتشو»* وفي الجبن والعنب ،
 ويضاف إلى كل شيء ليضفي عليه لذة ،
 يضاف إلى الخمر والمرق ولحم الخنزير وإلى
الخبز نفسه فيكون الخبز مع الخبز ، وقد يكون وحده كالأمل أو مع أمنية



* طبق شائع في الاندلس يتألف من شوربة باردة تصنع من الماء والملح والزيت والخل والقثاء والبصل ويؤكل صيفاً
بعد الطعام (ل-ع)

ووهم . . .

والخبازون يأتون على خيولهم وهي تركض ويقفون عند كل باب منفتح قليلاً ، ويصفقون ويصيحون «الخباز» . . . ويسمع الصخب الرقيق للرجل الذي تسقط في الأسفاط ترفعها الأذرع العارية فتصطك مع السميذ ، والأقراص وهي تختلط مع اللفائف . . .

وعندئذ ينادي الأطفال الفقراء عند الأجراس التي على شبابيك الأبهاء أو الأقفال التي على الأبواب ويكون طويلاً نحو الداخل وهم يصيحون : قليلاً من الخبز! . . .

ما أجملك اليوم يا بلاتيرو : هلم إليّ . . . أنعم بالغسل الذي حبّتك
إياه هذا الصباح «لاماكاريا**»! كل ما فيك من بياض وكل ما فيك من
سواد يتألق ويزدهر كالنهار والليل غبّ المطر ، ما أجملك يا بلاتيرو!
ولكن بلاتيرو ، وقد غلبه الحياء قليلاً لأنه يتراءى لنفسه كذلك ، يأتي
إليّ على مهل ولا يزال مبتلاً بعد حمامه ، وهو من النظافة بحيث يبدو
كطفلة عارية ، وقد أضاع وجهه كأنه فجر ، ولمعت عيناه الكبيرتان كأنما
أعارتهما أصغر آلهات الجمال الحماس والبريق .

أقول له ذلك ، وأخذ برأسه في حماس أخوي أفاجنه به ، ثم أهزه
وأشد عليه بحنان وألاعبه . . . أما هو فيخفض بصره ويتقنني في رقّة بأذنيه
دون أن يذهب ، أو ينطلق بأن يجري قليلاً ثم يعود ويقف فجأة كأنه يلعب .
وأعيد عليه القول - ما أجملك يا بلاتيرو!

وبلاتيرو ، وكأنه طفل فقير يزهو بشوبه الجديد ، يعدو خائفاً ، ويتحدث
معي وينظر إليّ وهو يهرب ، وأذناه تضطربان بالبهجة ، ويبقى على باب
الزريبة ليأكل بعض كؤوس الزهر الملونة .

وأجلّاي واهبة الرحمة والجمال تعتمد على شجرة الكمثرى التي

(*) أصغر آلهات الجمال الثلاث المسماة Gracias ، وفي الأسطورة أنها تزوجت إيناستوس . (ل-ع) .

(**) خادم كانت في بيت الشاعر (ل-ع)

تزدان بكؤوس ثلاث ، كأس الورق وكأس ثمرة الكمثرى . وكأس القنبرة ،
وتنظر إلى المشهد وهي تضحك ، لا تكاد تدركها الأبصار في شمس الصباح
الشفافة .

صنوبرة كورونا

حيثما وقفت يا بلاتيرو خيل إليّ أني أقف تحت صنوبرة كورونا ؛
 وحيثما ذهبتُ سواء إلى المدينة أو إلى الحبّ أو إلى المجد خيل إليّ أني
 أذهب إلى عنفوانها الأخضر المسكوب تحت السماء الكبيرة الزرقاء بسحبها
 البيضاء ؛ إنها منار هادٍ وواضح في البحار الشاقة لأحلامي كما هي منار
 للملاحين من أهل مُغير في عواصف الطريق ، وقمة ثابتة لأيامي العسيرة
 بأعلى مكان في طريقها الأحمر الوعر الذي يسلكه الشحاذون وهم في طريق
 «سانلوكّر» .

ما أشد قوتي التي أحس بها كلما استقرّ بي المقام تحت ذكراها! إنها
 وحدها التي لم تكف ، وأنا أغو ، عن الكبير ؛ وهي وحدها التي عظّمت مع
 الزمن ؛ ولما قطعوا منها الغصن الذي حطّمته العاصفة خيل إليّ أنهم بتروا
 عضواً من جسمي ، وأحياناً ينتابني ألم على حين غرة فيخيل إليّ أنه يؤلم
 صنوبرة كورونا .

لفظُ «عظيم» يصدق عليها كما يصدق على البحر وعلى السماء وعلى
 قلبي ، قد تغيّأت ظلها أجناسُ طوال القرون وهي تنظر إلى السحب كأنها
 فوق الماء وتحت السماء وفي حنين قلبي ؛ وفي انطلاق أفكاري حين تتراصّ
 الصور التي لا سلطان لأحد عليها حيث تشاء ، أو في تلك اللحظات التي
 تبدو فيها الأشياء كأنها في مرأى ثانٍ وعلى جانبها المتميّز تتراءى لي شجرة
 الصنوبر ، وقد استحالت إلى ما لا أدريه من إطار للخلود ، أكثر صخباً

وضخامة في الشك ، وهي تدعوني إلى أن أستريح في سكينتها ، كأنها
النهاية الحقّة الأبدية لرحلتي في الحياة .

داريون ، طبيب بلاتيرو ، كبير كالعجل الطيب ، أحمر كالبطيخة ، يزن مائة وعشرين كيلو ؛ وسنّه فيما يقول ، ستون سنة .

تنقصه حين يتكلم بعض الأنغام كما تنقص أجهزة البيانو العتيقة ، وربما انطلق منه هواء مكان الألفاظ ، وهذا الصغير يقترن بانحناء الرأس وتحرك اليدين وتردد الخرف وصخب الحنجرة والبصق في المنديل مما ليس معه زيادة لمستزيد . نغم محبوب يتوقف قبل العشاء .

لم يبقَ له سن أو ضرس ، ولا يأكل إلا لبّ الخبز الذي يرققه أولاً في يده فيصنع منه كرة ويقذفها في فمه الأحمر ، وهناك يديرها ساعة من الزمن ، ثم كرة أخرى وكرة ثالثة ، ويظل يمضغ اللتين ، وحينئذ تصل ذقنه إلى أنفه المحدث .

أقول إنه كبير كالعجل الطيب ، فهو يغطي المنزل إذا وقف عند باب البنك ؛ لكنه يرقّ كالطفل مع بلاتيرو ؛ وحين يرى زهرة أو طائراً لا يلبث أن يضحك ملء شذقيه ضحكة كبيرة متصلة لا يستطيع أن يضبط سرعتها واستمرارها وتنتهي دائماً بالبكاء ، ثم يغلبه الجد فينظر طويلاً من جانب المقبرة القديمة :

- بنيتي ، بنيتي المسكينة

الطفل والماء

في الجفاف المجدب المحترق بالشمس في الفناء المُغبرّ الكبير الذي مهما أبطأ المرء في السير فيه امتلاً حتى عينه بالغبار الأبيض الناعم ، كان الطفل مع النبع في جماعة صريحة باسمه كل واحد منها مع روحه ، ومع أنه لا توجد شجرة واحدة فإن القلب إذ يصل هناك يمتلىء بعدد منها حتى إن العيون لتردّد في السماء ذات الزرقة القائمة كتابةً بحروف كبيرة من نور :
واحة .

في الصباح حرارة ما بعد الظهيرة ، والحر يقطع الزيتون في فناء «سان فرنسيسكو» والشمس تحرق رأس الطفل ، لكنه وهو مقبل على الماء لا يحس بها ؛ لقد ارتقى على الأرض وجعل يده تحت الماء الدافق الحي ، فوضع الماء في يده قصراً مهتزاً من النضارة والرقّة ، جعلت عيناه تتأملانه وهما ذاهلتان ، يتكلم وحده ويخفي أنفه ويحك بيده الأخرى بين أسماله هنا وهناك ، والقصر وهو متمائل دائماً ويتجدد في كل لحظة يتفرق أحياناً ، وعندئذ يقبل الطفل على نفسه ويشد على جسمه ويستجمع أطرافه حتى لا يؤدي خفقان الدم الذي يغير الصورة الحساسة في الكاليد سكوبيكو* بزجاجه المتحرك وحده إلى أن يسلب الماء صورته الأولى الرائعة . لا أدري يا

(*) آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة أشكال حتى على نظام بديع (ل-ع) .

بلا تيرو إن كنت تفهم ما أقول أو لا تفهمه ولكن هذا الطفل في يده روعي .

الصداقة

نحن نحسن التفاهم ، أنا أدعه يذهب إلى حيث يشاء وهو يحملني إلى حيث أريد .

يعلم بلاتيرو أنني عند وصولي إلى صنوبرة كورونا يروقني أن أقترب من جذعها وأداعبه ، وأنظر إلى السماء من خلال تاجها العظيم الواضح ؛ يعلم أنه تطيب لي الخضرة التي تمتد بين العشب إلى الينبوع العتيق ، وأن بما يعتبر عيداً لي أن أرى النهر من تل أشجار الصنوبر ، إذ يشير في النفس بغابته العالية ذكرى أماكن معهودة ؛ ولما كنت أنام مطمئناً عليه فإن يقظتي تفتح دائماً على إحدى هذه المشاهد الحبيبة .

إنني أعامل بلاتيرو كما لو كان طفلاً ، فإذا كان الطريق وعراً يثقل عليه قليلاً نزلت لأخفف عنه ، ثم أقبله وأخادعه وأناوشه . . .

عندئذ يعلم أنني أحبه ولا يحمل لي حقداً ، فهو شبيهي ومختلف عن الآخرين بحيث انتهى إلى أن تراوده نفس أحلامي .



وقد سلم لي بلاتيرو نفسه كأنه فتاة غلبها الهوى ، فهو لا يحتاج على شيء ؛ وأعلم أنني سعادته ، ولقد يبلغ به الأمر أنه يهرب من الحمير ومن الناس . . .

التنيم الطفل بغنائها

بنت بائع الفحم وهي لطيفة وقذرة كأنها عملة ، تلمع عيناها
السوداوان ، وشفتاها اللتان تشد عليهما بين الدخان تقذفان دماً ؛ تجلس عند
باب الكوخ على حجر وهي تنيم أخاها الصغير .

تهتز ساعة مايو وهي متقدة صافية كأنها شمس من الداخل ؛ وفي
السكنينة اللامعة يُسمع غليان القدر يطبخ في الحقل ، وصهيل الخيل وهي
في المرعى ، وفرح الريح التي تهب من البحر في غمرة أشجار الكافور .
وراحت الفحامة ، وهي جالسة حلوة ، تغني بقولها :

سينام طفلي

في رحمة العذراء الراعية . . .

ثم سكنت ، والريح في كؤوس الزهر :

ولكي يرقد طفلي

ترقد التي تنيمه . . . *

الريح بلاتيرو الذي يمشي هوناً بين أشجار الصنوبر المحترقة يصل
شيئاً فشيئاً ثم يرتقي بعدئذ على الأرض المعشوشبة ، وفي أنغام
المقطوعة الطويلة للأم ينام كأنه طفل .

شجرة الفناء

هذه الشجرة يا بلاتيرو ، شجرة الطلح التي زرعتها بنفسي ، وهي لهب أخضر جعل ينمو ربيعاً بعد ربيع ، والآن تظللنا بورقها الوارف وقد مرت عليها الشمس الآفلة ، كانت أثناء مقامي في هذا المنزل المغلق الآن خيراً عماد لشعري ، فكل غصن فيها مزدان بالزمرد في أبريل أو بالذهب في أكتوبر ، وحسبي منه أن أنظر إليه لينعش جبھتي كأنه أنقى يد لآلهة الشعر . ما كان أرقها وأرشقها وأجملها !

وهي الآن يا بلاتيرو سيدة الفناء كله ، يا للوشي الذي وضَعته ! لا أدري إن كانت تذكرني ؛ أما هي فتبدو لي شيئاً آخر ، وطوال هذا الوقت الذي نسيته فيها كأنه لا وجود لها جعل الربيع يصنعها عاماً بعد عام على هواه خارج مستوى عاطفتي .

إنها اليوم لا تقول لي شيئاً مع أنها شجرة ، وشجرة أنبتتها بنفسي ، والشجرة التي ندللها لأول مرة تملأ القلب يا بلاتيرو بالمعاني ، الشجرة التي طالما أحبينها وطالما عرفناها لا تقول لنا شيئاً ما يا بلاتيرو ؛ إنها حزينة ؛ لكن لا جدوى من أن تقول شيئاً آخر .

كلا ، لا أستطيع أن أنظر في خليط شجرة الطلح والغروب إلى مزهري المعلق ، فلا الغصن الرشيق يوحي إلي بالشعر ، ولا الضوء الداخلي لتاجها يهديني إلى الفكرة ؛ وهاهنا حيث جئت مراراً من الحياة وأنا أتوهم الوحدة الموسيقية وهي غضة عاطرة ، أراني مريضاً أحس بالبرد ، وأريد أن أرحل كما كنت أفعل من قبل ، عن المنتدى والحانوت وعن المسرح يا بلاتيرو .

المسلولة

كانت على مقعد حزين ، وجهها أبيض لا بريق فيه ، كأنها زهرة
ناردين مقطوفة ، في وسط الغرفة الباردة البيضاء ؛ أوصاها الطبيب بأن تخرج
إلى الريف ليهبها شمس مايو البارد ، لكن المسكينة لم تستطع .
قالت لي :

كلما أصل إلى القنطرة يا سيدي عند ذلك الجانب أختنق .
وكان صوتها الضعيف الرقيق المتقطع يتساقط مكدوداً كما تتساقط
أحياناً نسمة الصيف .

أعطيتها لبلاتيرو كي يطوف بها قليلاً ، وامتنطته ؛ فيا للضحكة التي
تنبعث من وجهها الحاد ، وجه الميتة ، الوجه الذي كله عيون سوداء وأسنان
بيضاء

وأطلت النساء من الأبواب ينظرن إلينا ونحن نمر ، وكان بلاتيرو يمشي
على مهل كأنه يعلم أنه يحمل فوق ظهره زنبقة هشة من بلور رقيق ، وكانت
الطفلة في ثوبها الأبيض ثوب «عذراء مونتمايور» الذي يموج بلون أحمر قائم
وقد غيرتها الحمى والأمل ، كأنها ملك يجتاز القرية في طريقه إلى سماء
الجنوب .

قطر الندى *

قلت لبلا تيرو هيا بنا ننتظر موكب العربات ، فهي تحمل جلبة غابة
«دُنيانا» البعيدة ، وسرّ صنوبرة «لاس أنيماس» ونضارة «لاس مادريس»
و«لوس دُوس فيرنوس» ، وعطر «روشينا»

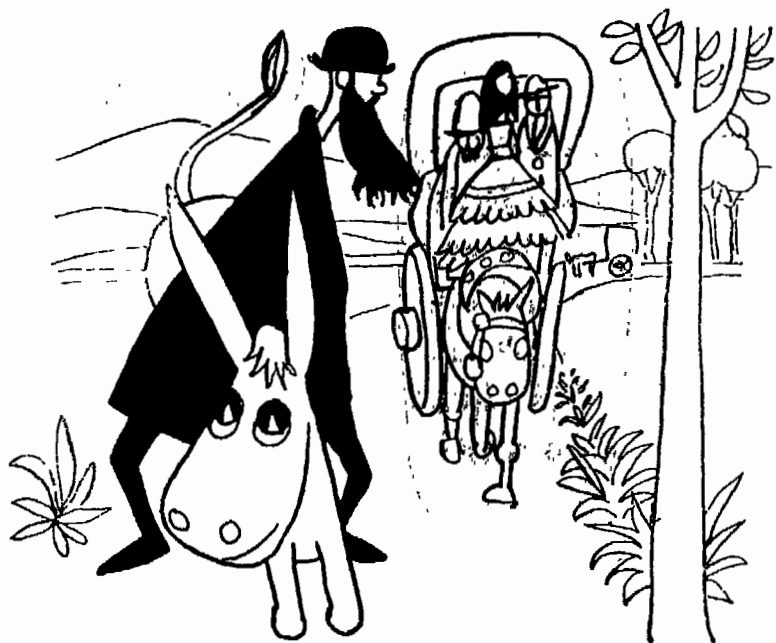
حملني وهو الجميل المترف لأتغزل بالفتيات بشارع «لافوينتي» الذي
تموت في جنباته الجيرية السفلى شمس المساء المهتزة وهي في صورة شريط
وردي مبهم ، ثم قصدنا بعدئذ إلى سياج «لوس هورنوس» حيث يتراءى
طريق «لوس إلياثوس» كله .

أقبلت العربات من أعلى الطريق ، وكان قطر الندى الرقيق يتساقط
على الكروم الخضراء كأنه سحابة رحيمة عابرة ، غير أن الناس لم يكونوا
يجشمون أنفسهم عناء رفع أبصارهم إلى الماء .

مضى أولاً أزواج من الفتيان وصواحبتهن الفتيات ، أولئك فرحون ،
وهؤلاء باسلات مضوا على الحمير والبغال والخيل المزدانة بحلية كحلية
الأفراس العربية وشعورهن مصفورة ، وكانت الضجة الفتية الحية تروح وتغدو
ولا تزال تتعالى حتى تستحيل إلى جنون لا معنى له ، ثم تلا ذلك عربية
السكرارى صاخبة مضطربة ، وبعدها عربات كالأسرة مزدانة بألوان بيضاء ،
عليها فتيات سمراوات ناهضات مشرقا وقد جلسن تحت المظلة يضربن
الدفوف ويصحن بأغان إشبيلية . وتتكاثر الخيل وتتكاثر الحمير . . . ويهتف
رئيس الموكب «تحيا عذراء قطر الندى! تحيا يا يا!» وهو أصلع نحيف أحمر ،

قبعته العريضة على ظهره ، وعصاه الذهبية في ركابه . وأخيراً أقبل «المطهر»
من الإثم» بلونه الأرجواني والفضي على عربته البيضاء التي تتأرجح في
اهتزازها المتباين وكلها زهرٌ ، كأنها محملة بجنة ساحبة ، يجرها على مهل
عجلان كبيران طيبان ، يخيل إلى من يراها أنهما مطرانان ، تزدان
جبهتهما بشتى الألوان والمرايا التي يتطاير منها شرر ينبعث من انعكاس
الشمس المبتلة .

وكانت تسمع الموسيقى مخنوقةً بين أصوات الأجراس والصواريخ
السوداء ووقع حوافر الخيل وهي تدق الأحجار بحديدتها ...
عندئذ ضم بلاتيرو يديه ثم ركع كما تركع المرأة ... وتلك براعة
منه ... وكان في حركته غصاً متواضعاً رضيئاً .



لما تحرر بلاتيرو من مقوده وأخذ يرعى بين أزهار اللؤلؤ في المرج
استلقيتُ تحت شجرة صنوبر وتناولت من الخُرج العربي كتاباً صغيراً ثم
فتحته بعلامة فيه وأخذت أقرأ بصوت مرتفع :

كما نرى على الغصن في شهر مايو
الوردة في صباها الجميل وفي زهرتها الأولى
تثير غيرة السماء من

وفي العلياء عند الغصون الأخيرة يثب ويصفّر طائر خفيف جعلته
الشمس من ذهب كسائر القمة الخضراء التي تتنفس ، ويُسمع بين طيرانه
وصفيده انشقاق الحب الذي يأكله هذا الطائر .
. . . . من لونها الحي

وإذا بشيء هائل فاتر يتقدم على كتفي كأنه صدر حي للسفينة ؛ إنه
بلاتيرو الذي استوحى من غير شك مزهر «أرفيو**» جاء ليقرأ معي .
ونقرأ :

... لونها الحي

حين أخذ فجر دموعها في مطلع النهار . . .
غير أن الطائر الذي يتمثل غذاءه بسرعة راح يستر الكلمة بنفحة

(*) بير دي رونسار شاعر فرنسي في شعره عطر نادر واتساق كامل وتباين في القوافي (١٥١٤-١٥٨٥) - (ل-ع)

(**) أعظم موسيقي عرفه العالم القديم قيل إنه كان إذا عزف يادرت الوحوش إليه وجمت تحت قدميه (ل-ع) .

ورونسار المنسي لحظة في مقطوعته الشعرية حيث يقول «إني وأنا أفكر
في شرّهي أجمع . . .» لا بد أن يكون قد ضحك في الجحيم .

صاحب صندوق الدنيا

لم يلبث صمت الشارع أن قطعه دقُّ الطبل في خشونته ، وأعقبه صوت أجش يهتز بنداء متقطع طويل ، ثم أصوات العدو أسفل الشارع . . . والصبية يصيحون : صاحب صندوق الدنيا! صندوق الدنيا! صندوق الدنيا! .

وفي الزقاق منصة عليها صندوق صغير أخضر تعلوه أربع رايات وردية وبه منظار متجه إلى الشمس ، والعجوز يدق ويدق الطبل ، ويحيط بالصندوق جماعة من الصبية لا مال معهم وقفوا ساكتين ، أيديهم في جيوبهم أو على ظهورهم ، وما هي إلا لحظات حتى يجيء صبي آخر يعدو ونقوده في كفه فيتقدم ويضع عينيه على المنظار

- الآن ترون . . . القائد بـِرم . . . على حصانه الأبيض ! . كذلك يقول العجوز الغريب : وهو بـِرم ضيق الصدر ويدق الطبل .
- ميناء برشلونة . . . ! - ثم يدق الطبل .

ويجيء أطفال آخرون ونقودهم معهم ، ثم لا يلبثون أن يتقدموا إلى العجوز وينظروا إليه ونفوسهم مهيأة لشراء تخيلهم ، ويقول العجوز :
- والآن ترون . . . حصن هابانا ! - ثم يدق الطبل . . .

وبلاتيرو الذي ذهب مع الطفلة والكلب المقابل ليرى صندوق الدنيا يدس رأسه بين رؤوس الأطفال على سبيل العبث ، فيقول له العجوز بدعابة يرتجلها لساعته :

- هات نقودك!

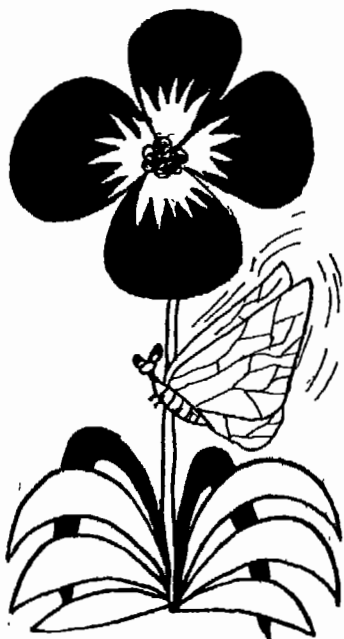
- والأطفال الذين لا مال معهم يضحكون جميعاً من غير رغبة ،
وينظرون إلى العجوز نظرة فيها توصل يترصونه بها . . .

نغمة الطريق

ما أنقى وأجمل وردة الطريق
هذه يا بلاتيرو! تمر بجوارها الدواب -
الثيران والمعز والأفلاء والناس - وهي
في رقتها وضعفها ، لاتزال ناهضة
رحيمة رشيقة في سياجها الحزين
دون أن تشوبها ريبة ما .

وفي كل يوم نبدأ الطريق
ونختصره وتراها في مكانها
الأخضر ، إما بجانبها طائر ينهض -
لم؟ - ليقترب منا ؛ وإما هي مليئة
كالكأس الصغيرة ، بالماء الصافي
لسحابة صيف ، راضية بأن تسرقها
نحلة أو تزدان بها فراشة .

هذه الزهرة يا بلاتيرو ستعيش أياماً قليلة وإن كانت ذكرها ستظل إلى
الأبد ؛ ستكون حياتها كيوم من ربيعك وكربيع في حياتي ، . . . تُرى ماذا
أعطي يا بلاتيرو للخريف مقابل هذه الزهرة الإلهية حتى تكون في كل يوم
المثل اليسير اللانهائي لنا؟



لا أدري إن كنت يا بلاتيرو تعرف كيف تنظر إلى الصورة ، لقد أطلعتُ عليها نفراً من أهل الريف ولم يروا في الصور شيئاً ، وبعد فهذا «لورد» يا بلاتيرو الكليب السلوقي الذي حدثتكَ عنه مراراً ؛ انظر إليه إنه -ألا تراه؟- في أحد مساند بهو الممر يأخذ شمس الصيف بين أصص الزهر التي فيها إبر الراهب .

يا له من مسكين! جاء من إشبيلية وأنا أرسم هناك ، كان أبيض لا لون له تقريباً ، كثير الضوء ، ممتلئاً كأنه فخذ سيدة ، دائرياً ودقاًقاً كالماء في فم بئر ؛ هنا وهناك فراشات مستقرة وبقع سوداء ، وعيناه شيثان هائلان قصيرا المدى تفيضان بمشاعر النبل ، وكان فيه عرق من جنون ، فأحياناً يعمد إلى الدوران في انحناء بين سوسنات بهو الممر المزدان كله بها بين حمراء وزرقاء وصفراء ، من بلور مرت عليه شمس السقف الزجاجي ، كذكور الحمام التي يرسمها دون «كاميلو» وأحياناً أخرى يصاعد إلى الأسطح ويشير ضجة لها صغير في أعشاش القنابر . . . «ؤلاماكاريا» تغسله كل صباح فيكون له أبداً إشعاع كشرقات السطح في السماء الزرقاء يا بلاتيرو .

ولما مات أبي بات ليلته يحرسه بجانب التابوت ، ومرضت أمي ذات مرة فارتمى عند أقدام سريرها وقضى هنالك شهراً لا يذوق طعاماً أو شرباً . . . وجاؤوا يوماً يقولون في داري إن كلباً أجرب عضه . . . فكان لا بد من نقله إلى معصرة الخمر في «كاستيللو» وربطه هناك إلى شجرة برتقال بعيداً عن الناس .

نظرتُ التي خلفها وراءه في الشارع حين حملوه لاتزال تجرح قلبي كما
فعلتُ به من قبل يا بلاتيرو ، كأنها ضوء نجمة ميتة ، وحية دائماً ، قد
تجاوزت عدمها بالكثافة المشبوبة لشعورها الأليم . . . وكلما وخز القلب ألم
«مادي» تتمثل لي نظرة «لورد» التي تركت فيه إلى الأبد مثلما يترك الأثر
الأليم ، وهي طويلة كطريق الحياة إلى الخلود أعني من المسيل إلى صنوبرة
«كورونا» .

البئر! ... يا بلاتيرو يا لها من كلمة عميقة ، ذات خضرة قائمة ، رقاقة صائتة! كأن الكلمة هي التي تحفر ، إذ تستدير ، الأرض المظلمة حتى تصل إلى الماء البارد .



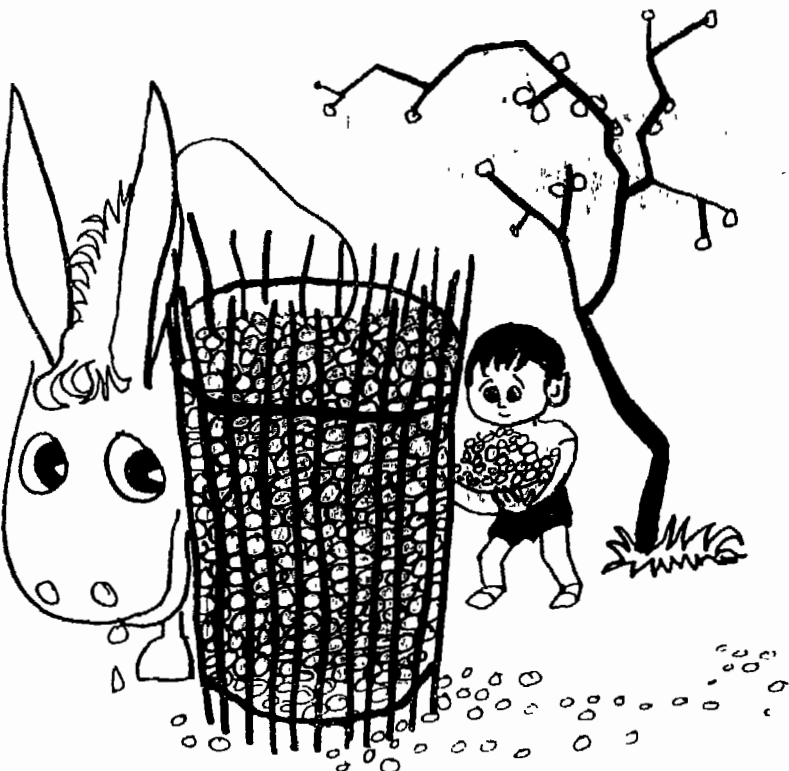
انظروا شجرة التبن تزَيْن فم البشر وتعوقه ، وبداخله في متناول اليد
تفتحت بين الأجر المغطى بالطحلب زهرة زرقاء عطرها نفاذ ، وفي أسفل
ذلك عش لقنبرة ، يتلوه بعد رواقٍ ذي ظل ساكن قصرٌ من الزمرد وبحيرةٌ إذا
رمى فيها رام بحجر غضبت وزمجرت ، ثم السماء وراء ذلك كله .

(يدخل الليلُ ويشتعِل القمرُ هناك في الأعماق ، وقد ازدان بنجوم
دائرة ، سكون! وفي الطرقات ذهبَت الحياة بعيداً ، وفي البشر تهرب الروح إلى
الأعماق ، يُرى من خلاله ما يشبه الجانب الآخر من الشفق ، وكأنما سيخرج
من فمه عملاقُ الليل صاحبُ أسرار العالم جميعاً . يا لك من قصر التيه
الساكن المسحور ، وبالك من منتزه ظليل عاطر ، وقاعة مغناطيسية
مهجورة) .

يا بلاتيرو . إذا أنا نزلت يوماً ما في هذا البشر فلن يكون في ذلك
حتفي ، وصدقني فيما أقول ، بل لآخذ النجوم على عجل .
وبلاتيرو ينهق وهو عطشان متطلّع ، ثم تخرج من البشر قنبرة مفزعة
مضطربة صامته .

٥٢
المشمش

في زقاق «سال» الذي يتلوى في ضيقه ، بلونه البنفسجي من الجير مع الشمس والسماء الزرقاء إلى البرج وهو غطاؤه الأخير المسود العاري في تلك الناحية الجنوبية من آثار ضربات الريح التي تهب من البحر ، يجيء على مهل طفل وحمار ، والطفل وهو رجيل قصير ، أصغر من قبعته العريضة الساقطة ،



يعكف على قلبه الخيالي الجبلي ، فيعطيه أناشيد وأناشيد خفيضة :

بتعب شديد

طلبته

أما الحمار ، وهو طليق ، فيعض العشب القليل المتسخ في الزقاق وقد
أرهقه حمل الشمس ؛ والطفل من حين لآخر ، وكأنه يتجه إلى الشارع
الحقيقي ، يتوقف فجأة ويفتح رجليه العاريتين الأرضيتين ويضمهما في
الأرض كأنه يستمد منها قوة ، ثم يجوفّ صوته بيده ويغني غناء حاداً
بصوت تتمثل طفولته فيه وهو يمد كسرة الميم :

الميشمش!

ويعود بعد ذلك إلى غناؤه العجري العريض ، ولا يعنيه البيع في شيء
على حد ما يقول الأب دياث :

«أنا لا ألومك . . .

لن ألومك»

ويضرب الأحجار بالعصا دون أن يدري . . .

تفوح رائحة الخبز الحار والصنوبر المحترق ، وتهب نسمة بطيئة تحرك
الشارع ، وفجأة يدق الناقوس الكبير ليتوج الساعة الثالثة بما يزدان به من
جرس صغير ، وتتلو ذلك أصوات الأجراس معلنة العيد فتخفق بسيلها
ضجة البوق وجلاجل عربة المحطة التي تقطع أثناء صعودها في القرية
الصمت الذي نام ؛ والهواء على الأسطح يأتي ببحر خيالي في بلورته
العاطرة المتحركة البراقة ، بحر لا حد له أيضاً ، برم بأمواجه المتشابهة في
لمعانها المتفرد .

والطفل يعود إلى مكانه الأول ، إلى يقظته وإلى صياحه :

مشمش! . . .

وبلاتيرو لا يريد أن يمشي ، فينظر وينظر إلى الطفل ويشم حماره
ويلطمه والحماران يتفاهمان على ما لا أدريه من حركة توأمية للرأسين تذكر
في الحال بحركة الدببة البيضاء . . .

حسن يا بلاتيرو ، اسأل الطفل أن يعطيني حماره ، وأنت تذهب معه
وتكون بائع مشمش . . . هيا!

الرفسة

مضينا في طريق «مُنْتِمَائُور» إلى حيث توسم الأبقار والثيران الصغيرة ؛
والبهو المرصوف بالحجر ، وهو ظليل تحت سماء المساء الهائلة المتقدة الزرقاء ،
يهتز مصوئاً من صهيل الخيل الفرحة الدافقة ، وضحك النساء الفضي ،
ونباح الكلاب القلق ، وبلاتيرو يجزع وهو قابع في أحد الأركان .
قلت له . . . ولكنك يا صاح لا تستطيع أن تأتي معنا ، إذ أنت صغير
جداً . . .

فجن جنونه حتى طلبت إلى «الأبله*» أن يمتطيه ويأتي به معنا .
ما أجمل الركض الفرح في الريف! كانت الغدران المبتسمة معصوبة
بالذهب ، والشمس في مراياها المتكسرة تضاعف الطواحين المقفولة ، وبين
الركض الدائري الشديد للخيول أخذ بلاتيرو يرفع خبئه الحاد السريع الذي
اضطر إلى أن يضاعفه باستمرار كقطار «ريوتنتو» في حركته الدقيقة على
القضبان حتى لا يبقى وحده مع «الأبله» في الطريق . وبيننا نحن كذلك إذا
بشيء يدوي كأنه طلقة مسدس . لقد صدم بلاتيرو بفمه وركّ فلو رقيق
بطيء ، والفلو رد عليه برفسة سريعة ؛ لم يعبأ أحد بهذا ، ولكنني رأيت
بلاتيرو والدم يسيل من يده ، فألقيت بنفسي على الأرض وأخذت شوكة
وسببية وربطت العرق المقطوع ، وسألت «الأبله» بعد ذلك أن يحمله إلى

المنزل .

ذهبا بطيئين حزينين ومرا بالمسيل الجاف الذي يهبط من القرية وقد
حولاً رأسيهما إلى الفرار اللامع لحركتنا . . . ولما عاد الموكب مضيت لأرى
بلا تيرو فلقيته حزينا متألماً .

قلت له بزفرة : ألا ترى أنك لا تستطيع أن تذهب مع الرجال إلى أي
مكان؟

التحمير

أقرأ في المعجم : التحمير ، يوصف به الرجل على سبيل السخرية
لشبهه بالحمار .

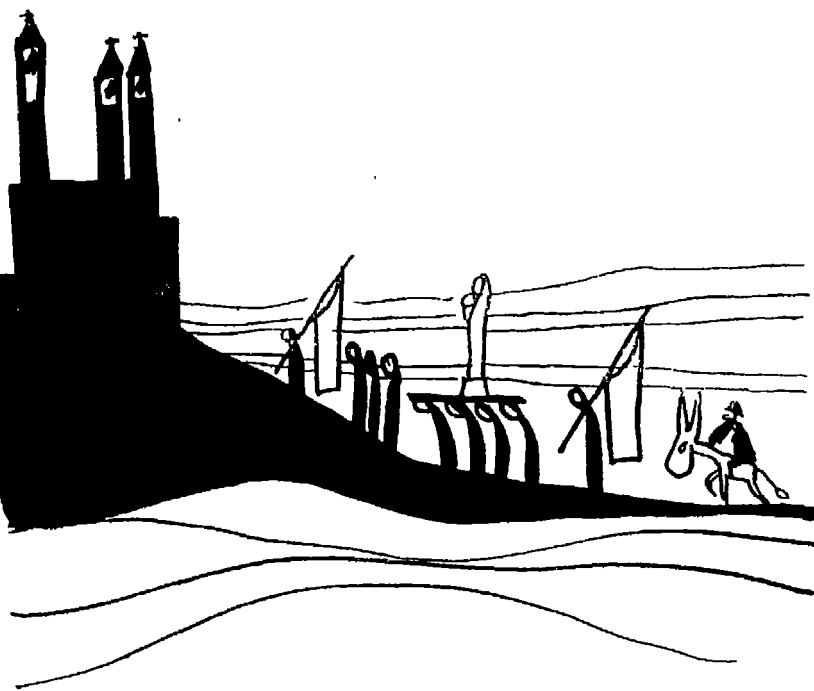
يا لك من حمار مسكين وأنت من أنت في طبيعتك ونبلك وحدتك . .
على سبيل السخرية . . لم؟ ألا تسحق وصفاً جاداً ، أنت الذي صفته
الحقة كونك قصة من قصص الربيع؟ إنه لأجدر بالإنسان الطيب أن يقال له
حمار! وأجدر بالحمار الخبيث أن يقال له إنسان! . . على سبيل السخرية . . .
والسخرية منك ، وأنت المثقف صديق الكهل والطفل ، والمسيل والفراشة ،
والشمس والكلب ، والزهرة والقمر ؛ صبور متأمل ، حزين رضي النفس ،
ماركو أوليو* المروج . . . وبلا تيرو الذي لا شك أنه يفهمني يحدق فيَّ
طويلاً بعينه المضيئتين وبشدة فيها لين ، عينيه اللتين تلمع فيهما الشمس
وهي صغيرة وهاجة في قبة السماء الموجزة المحدبة بخضرتها التي يغشاها
سواد . أه! لو عرف رأسه الصغير الشعري أنني أنصفه وأني خير من هؤلاء
الذين يكتبون المعاجم وأني أكاد أكون طيباً مثله!

ووضعت في حاشية الكتاب : التحمير : ينبغي أن يوصف به على
سبيل السخرية بالطبع! الرجل الأحق الذي يصنف المعاجم .

(*) أفضل أناطرة الرومان وخيرهم ، تولى الحكم من سنة ١٦١ إلى ١٨ ، وقد اشتهر بحكمته واعتداله وولعه
بالفلسفة والآداب - (ل-ع)

الموكب الديني

لما دخلنا في شارع «لافوينتي» ونحن عائدون من البستان ، كانت
 الأجراس التي سمعناها ثلاث مرات من «لوس أورويؤوس» تهز القرية البيضاء
 بنداها وتويجها البرونزي ، تترامى وتترامى بين صعود الصواريخ المزمجر ذي
 الشرر ، بسوادها في النهار ، والصياح المعدني للموسيقى .



والشارع وهو حديث عهد بطلائه بالجير وبالطين الأحمر في جانبيه
كان يرتدي أشجار الحور والسعادي ؛ والنوافذ تتألق بالأغطية من قماش
أحمر موشى ، وآخر من القطن أصفر ، وثالث سماوي واضح ، وحيثما كان
حدّاد فهو من الصوف الأبيض وبه أشرطة سوداء ، وعند آخر الدور في حنية
«البورتشي» يظهر مسيح المرايا بطيئاً ، ومن بريق الغروب يأخذ ضوء الشموع
الحمراء التي تقطر عليه كله لوناً وردياً ، ويمر الموكب على مهل ؛ الراية الحمراء
«وسان روكي» راعي الخبازين محملاً بخبز رقيق ، ثم الراية الخضراء و«سان
تيلمو» راعي الملاحين بسفينته الفضية في يديه ، ثم الراية الصفراء «وسان
إيسدرو» راعي الزراع مع زوج من العجول ، ثم رايات أخرى بألوان أخرى
وقديسون آخرون وفي عقب ذلك «سانتا أنا» تلقن العذراء الطفلة درساً ،
و«سان خوسيه» بلونه القاتم ، والمطهرة بلونها الأزرق . . . وفي آخر ذلك كله
فرقة الحرس بين الشرطة ، قد ازدانت أسلحتها الفضية المائلة إلى الأمام ،
وهي تتحرك على مهل في سحابتها السماوية من البخور ، بكرات في
أطرافها وأعنان زمردية فجة .

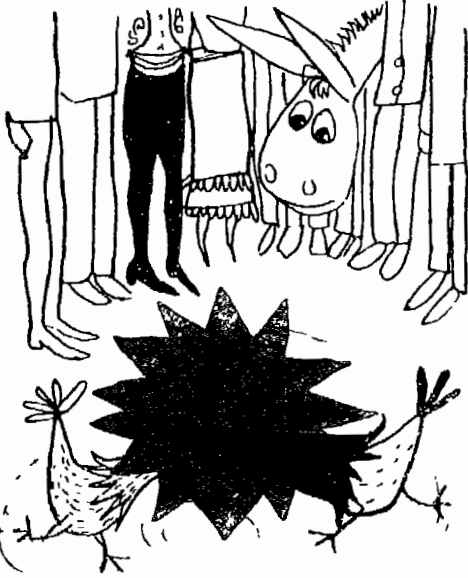
وفي المساء الهابط يتعالى اللاتيني الأنديلسي للمزامير نقياً صافياً ،
والشمس الوردية تكسر شعاعها السفلي الذي يطلع من شارع «ريو» في
أحمال الذهب العتيق المزدانة به حلل الشاماسة وغفارات الكهنة ، وفي
العلياء حول البرج القرمزي فوق الحمرة اللامعة لساعة يونية في جلالها ،
تنسج الحمام أكاليل زهرها العالية من الجليلد المتّقد .

وبلاتيرو في فراغ الصمت ينهق ، ووداعته تقترن بالناقوس والصاروخ
واللاتيني وموسيقى «موديستو» ، وكلها تبدل لتوها السر الصافي للنهار ؛
والنهيق العالي المتطاوّل يرققها ويجعلها إلهية .

ما أحلى أن نمضي في طرقات الصيف العميقة وقد تعلقت بها أزهار
العسل الرقيقة! . وأنا أطلع أو أغني أو أنظم شعراً للسماء ، وبلاتيرو يعض
عشب السياج القليل في الظل ، وأزهار الحبازي المغيرة ، وأزهار الحماض
المصفرة ، وهو يقف أكثر مما يمشي فأدعه . . .

والسماء وهي زرقاء زرقاء أسدّد إليها عيني في ذهول ، ترتفع فوق
أشجار اللوز المثقلة إلى نهاية أمجادها ، والريف كله يتلأأ في صمته
واشتعاله ؛ وفي النهر تخلّد دوّارة للهواء بيضاء لا ربح معها ؛ وتلقاء الجبال
يجرح الدخان التماسك للحريق سحبه السوداء المستديرة . لكن سيرنا
قصير ، فهو كيوم رقيق مجرد من السلاح في غمرة الحياة المتكاثرة ؛ لا تأليه
السماء ، ولا عالم ما وراء البحر الذي يمضي إليه النهر ، ولا مأساة
اللهب . . .

وحين يتراعى إلى السمع ، بين عطر البرتقال ، الحديد المبتهجّ الفضي
للناعورة ينهق بلاتيرو ويثب من الفرح ؛ ما أيسرها من لذة في كل يوم . .
وهناك في البركة أملاً كأسي وأشرب من ذلك الجليد السائل ؛ وبلاتيرو يمد
فمه في الماء الظليل ويعبّ من أصفى الماء وأنقاه هنا وهناك وهو به
ضنين



لا أدري بما أقارن ذاك
الضيق يا بلاترو... فهناك
ذروة راية حمراء قائمة وذهبية
ليس فيها متعة، راية وطننا
وهي فوق البحر أو فوق السماء
الزرقاء... بلى، لعلها راية
إسبانية فوق السماء الزرقاء
حلبة من حلبات مصارعة
الثيران... حلبة على طراز
مُدْجَن*...، كالمحطات التي
من «الابة» إلى إشبيلية،
حمرة وصفرة منفرة كالتي في
كتب جالدوس** وعلى

واجهات محال التبغ وفي اللوحات الرديئة للحرب الإفريقية الأخرى...

(*) هو في الفن المعماري الطراز الذي تدخله عناصر مسيحية مع رخارف عربية إسلامية والمدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في الدولة المسيحية بإسبانيا (د-ع)
(**) بيريت خالدوس كاتب إسباني خصب (١٨٤٣-١٩١٠) تزادان كسه التي جمع فيها الفصول الوطنية بحلية من لون أحمر وأزرق (د-ع).

ضيق كالذي طالما بعثته في نفسي مجاميع أوراق اللعب الرقيقة بما فيها من علامات كوشم الرعاة ، وألوان علب التبغ وعلب الزبيب وعلامات زجاجات النبيذ وجوائز كلية «البويرتو» ورسومات ورق الشيكولاته . . .

إلى أين أنا ذاهب ومن يحملني؟ كان يخيّل إليّ أن ظهيرة الشتاء الدافئة كبوق فرقة «مُودِستو» الموسيقية . . . كانت تفوح برائحة النبيذ الجديد ، وجُشَاء سجع الخنزير والتبغ . . . هناك النائب مع العمدة ومع لُتري مصارع الثيران ، ذلك الشديد اللامع من أبناء والبة . . . والحلبة المخصصة لعراك الديكة صغيرة خضراء ، تحدها وجوه محتقنة تجاوزت السياج الخشبي كأنها أحشاء بقرة في عربة ، أو أحشاء خنزير مذبوح ، عيونها تأخذ الحر والنبيذ والدفع المنبعث من لحم القلب الغليظ . . .

وكانت الصيحات تخرج من العيون . . . والحر شديد ، وكل شيء - يا لصفرة عالم الديكة - مقفل .

وفي الشعاع الضيق للشمس العالية التي ما فتئت تتخلّلها موجات من دخان أزرق بطيء فترسم منه ما يشبه بلّوراً مضطرباً كان الديكان الإنجليزيان المسكينان وكأنهما زهرتان شادتان حادثان يتواثبان على السواء ويمزق أحدهما الآخر ، ويأخذ كلاهما بعين أخيه ، يبت فيه أحقاد الناس ، ويمزقه بأظافره وعليها ليمون . . . أو سم ، ولم تكن لهما جلبة ما ، وعيناهما لا تبصران شيئاً بل لم يكونا هناك . . . ولكن أنا ، لم كنت هناك على قبح ما في ذلك؟ لا أدري . . . وكنت من حين لآخر أنظر بحنين لا نهاية له من نسيج ممزق يرتجف في الهواء ، فكان يخيّل إليّ أن شراع القارب على الشاطئ شجرة برتقال كاملة تعطر الهواء في الشمس الصافية بالحمل الأبيض من زهرها . . . ما أجمل أن يعطر روعي - كوني شجرة برتقال مزهرة ، وكوني ريحاً صافية وشمساً عالية! . . . ومع ذلك لم أنصرف .

الغروب

في الاجتماع الهادئ المتفرّع لألوان الشفق في القرية يا له من شعر
توهم البعيد والتذكر المضطرب لما لا يكاد يُعرف إلا قليلاً . . إنها متعة تنتقل
من نفس إلى نفس ، تصير معها القرية كلها وكأنها مثبتة في صليب فكرة
حزينة طويلة .

هناك شميم الحب المتكاثر النقي الذي يؤلف في الأهراء ، تحت النجوم
الغضة ، تلاله اللانهائية - يالسليمان! - الرقيقة المصفرة ؛ والزراع يرددون
أغانيهم من أجل ما هو أدنى في إعياء حالم ، والشكالي القاعدات في
مداخل البيوت يفكرن في موتاهن الذين يرقدون غير بعيد منهن وراء
الأفنية ، والأطفال يعدّون من ظل إلى آخر كما ينتقل الطير من شجرة إلى
أخرى . . .

وربما مرت بين الضوء الظليل الذي يتراءى في الواجهات الجيرية للدور
الضاربة التي أخذت مصابيح الزيت تصبغها باللون الأحمر أشباح أرضية
صامتة متأللة كشحاذ جديد أو برتغالي يمضي ليحترق الأرض أو لص
أحياناً ، وما منهم إلا من يناقض بظهره المظلم الرهيب الوداعة التي يضعها
الشفق برفقه وهوادته وزهده في الأشياء المعروفة . . . والصبية ينأون ؛ وفي
سر الأبواب التي لا ضوء فيها يدور الحديث عن قوم « يأخذون شحم
الأطفال ليشفوا به بنت الملك المسلولة »

الخاتم

كان ذلك على هيئة الساعة يا بلاتيرو ، تُفتح العلبة الفضية فيظهر ضاغطاً على قماش بني اللون كأنه طائر في عشه . يا لها من أمنية راودتني يوم ظهر لي فيها بعد أن ضغطت لحظةً بكفي الأبيض الدقيق الفضي ذلك الختم .

فرنسسكو رويث

مُغير

طلما راودني الحلم بخاتم صديقي في كلية دون كارلوس! وبالرؤسم الذي لقيته في أعلى الدار في مكتبي حاولت أن أصنع واحداً باسمي ولكنه لم يُجد وكان الطبع صعباً ، فلم يكن كالآخر الذي كان يخلّف هاهنا وهاهنا سواء في كتاب أو في جدار أو في اللحم رسم الحروف .

فرنسسكو رويث

مُغير

وذات يوم جاء إلى منزلي مع «أرياس» صائغ الفضة في إشبيلية تاجر أدوات كتابية ؛ يا لسحر ما معه من مساطر ودوّارات وحبر ذي ألوان مختلفة وخواتم وكان معه من ذلك جميع الصور والأحجام ، فكسرتُ الصندوق الذي أحفظ فيه النقود واستخرجت خمسة قروش نقدته إياها من أجل أن يصنع لي خاتماً عليه نقش اسمي وقريتي ؛ ما كان أطوله من أسبوع ذلك الأسبوع! وما كان أشد نبض قلبي حين كانت تتهل عربة البريد! ويا له من

عَرَقَ حزين كان ينضح به جلدي كلما ابتعدت خُطى ساعي البريد في المطر! وأخيراً أحضره لي ذات ليلة ؛ كان أداةً صغيرةً معقدةً ومعها قلم وريشة وحروف أولية يوضع عليها شمع . . . ، شيء أجهله! وضغطت عليها فظهر الختم جديداً لامعاً .

هل بقي شيء يمكن أن يُختَم في منزلي؟ هل هناك شيء لا أملكه؟ ولو طلب أحد مني الخاتم لقلت له : حذار أن ينفد ، وحينئذ ما أشد غمي! وفي اليوم التالي بأي سرعة فرحة حملت كل ما معي إلى الكلية! الكتب والسترة والقبعة والحذاء ويدي وعليها النقش :

خوان رامون خمينث

مُغِير

الكلبة الوالدة

الكلبة التي أحدثك عنها يا بلاتيرو هي كلبة «لُباتو» الصياد ، وأنت تعرفه حق المعرفة لأننا كثيراً ما لقيناه في طريق «لوس إليانوس» . . . أتذكر؟ تلك الذهبية البيضاء التي كأنها مغرب مغشى بالسحب في شهر مايو . . . ولدت أربعة صغار حملتهم «سالود» اللبانة إلى كوخها في «لاس مادريس» إذ كان يحتضر طفل لها ، وأشار عليها «دون لويس» أن تعطيه مرق الكلاب الصغار ، وأنت تعلم ما هنالك من أمر دار «لباتو» عند قنطرة «لاس مادريس» حين يجتاز المرء «لاس تابلأس» . . .

ويقال يا بلاتيرو إن الكلبة ظلت تمشي طول يومها ذاك كالمجنونة ، تدخل وتخرج وتتطلع إلى الطرق وتتقلب في الشعاب وتشم الناس . . . ولقد رآها الناس ساعة الصلاة بجانب دار الحارس في «لوس هرنوس» وهي تنبح بحزن فوق بعض غرارات الفحم في الغروب .

وأنت تعلم شارع «أنميديو» في مجاز «لاس تابلأس» . . . جعلت الكلبة تروح وتغدو أربع مرات في الليلة ، وفي كل مرة تأتي معها بجرو في فمها يا بلاتيرو ولما طلع الصباح وفتح «لباتو» بابه كانت الكلبة على العتبة تنظر بلذة إلى سيدها ، وصغارها جميعاً متشبثون في رعدة ساذجة بأثدائها الوردية الممتلئة

لعلها يا بلاتيرو مضت -إلى أين؟- في ذلك القطار الأسود المحترق
بالشمس الذي إذ يطلع من الجادة العالية فوق السحب البيضاء يفر إلى
الشمال .

أما أنا فقد كنت معك بمكان سفلي في القمح الأصفر المتموج وكله
يقطر من دم الفراشات التي يضع لها شهر يولية تيجاناً من رماد ، وكانت
سحب الدخان السماوي -هل تذكرها؟- تُحزن الشمس والأزهار إلى حين
وهي تحوم من غير جدوى إلى اللاشيء

رأس صغير أشقر يحرسه سوادا . . . كانت كرسُم يتوهمه المرء في
الإطار الهارب للنافذة .

لعلها تقول : تُرى من هذا الرجل المجلل بسواد الحداد وهذا الحمار
الفضي؟ من نكون! نحن . . . حقيقة يا بلاتيرو؟

العصافير

كان صباح سنتياغو مغشى بالسحب البيضاء والرمادية كأنه محروس بالقطن ، وذهب الناس جميعاً للصلاة وبقيت أنا وبلاتيرو في بستان العصافير .

العصافير! عجباً لها وهي تحت السحب الدائرية التي ربما أمطرت قطرات رقيقة ، تدخل النباتات المتسلقة وتخرج منها ، عجباً لها وهي تصيح ، ثم عجباً لها وبعضها يأخذ بمناقير بعض! هذه تسقط على غصن ثم تدعه وهو يهتز ، وتلك تشرب قليلاً من السماء في غدير عند حافة البئر ، وثالثة تثب على سطح الطنف المليء بزهر يكاد يكون جافاً أنعشه اليوم المغبر .

عصافير مباركة ليس لها عيد معين! في الحركة المتماثلة الطليقة لكل ما هو أصيل ولكل ما هو حقيقي . لا تقول لها كؤوس الزهر شيئاً اللهم إلا سعادة مبهمة ؛ فرحات دون التزام مفدور ، ودون جنات الآلهة أو نيرانها التي تسلب الأبواب أو تثير الرعب في نفوس الناس العبيد المساكين ، وليس لها من قانون أخلاقي إلا قانونها ولا إله سوى الزرقة ، تلك هي أخواتي ، أخواتي الحلوة .

يسافرون من غير مال ومن غير حقائب ، ويغيرون المنزل متى راق لهن ذلك ، يلجأن إلى مسيل أو يجئن إلى ورقة شجرة ، وما عليهن إلا أن يفتحن أجنحتهن لينلن السعادة ، لا يعرفن أيام الاثنين أو أيام السبت ، ويغتسلن

في كل مكان وفي كل لحظة ، ويعتقن الحب بلا اسم ، العالم المحبوب .
و حين يذهب الناس ، الناس المساكين ، للصلاة أيام الأحاد وقد أغلقوا
أبوابهم إذا بهن يأتين في مثل فرح للحب بدون طقوس ، ولهن لغطٌ غض
مبتهج ، إلى بساتين الدور المغلقة حيث يتأملهن تأمل الأخ لأخيه شاعر
يعرفنه حق المعرفة أو حمار رقيق -أأنت معي؟ .

فرسكو فيلت

لا خروج اليوم يا بلاتيرو فقد قرأت منذ قليل في ميدان «لوس اسكريبانوس» تعليمات العمدة :

«كل كلب يعيش في طرقات هذه المدينة الكريمة ، مدينة مُغير دون أن يحمل اسمه سيطلق عليه رجال الشرطة النار» .

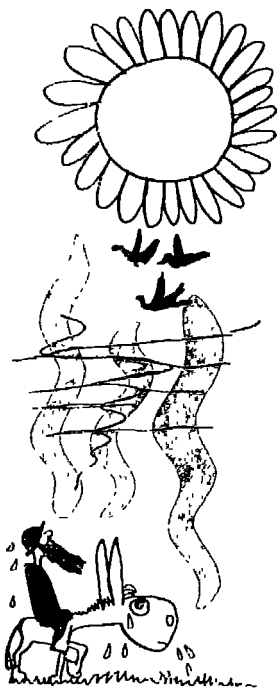
معنى هذا يا بلاتيرو أن في القرية كلاباً جرباء ، ولقد سمعت أمس طلقات الرصاص من شرطة البلدية التي تطوف ليلاً وهي أيضاً بما عمله فرسكو فيلت ، سمعتها في «منتريو» وفي «كاستيلو» وفي «تراسموروس» و«لوليتا» الحمقاء تقول بصوت عالٍ عند الأبواب والنوافذ إنه لا وجود لهذه الكلاب الجرباء ، وإن عمدتنا الحالي ، شأنه شأن العمدة السابق فاسكو الذي كان يخيف الناس ، يلتمس العزلة التي تكفلها طلقاته ليشرب ما معه من زبيب التين .

ولكن إذا كان هذا صحيحاً وعضك كلب أجرب؟ لا أريد أن أفكر في هذا يا بلاتيرو!

بلا تيرو يمضي وهو يقطر دماً ، دماً غليظاً
 قائماً ، من عض الذباب . والصرصر ينشر
 شجرة الصنوبر دون أن يستطيع . . . ولما
 فتحت عيني بعد حلم هائل لم يستغرق
 سوى لحظة استحال منظر الرمل إلى أبيض ،
 بارد في وقته ، خيالي .

وكانت شجيرات الشعر* الواطئة
 مرصعة بأزهار كبيرة متراخية ، وورود من
 الدخان ومن الغاز ومن ورق الحرير ، مع أربع
 دموع من الحمرة القائنة ، ثم ضباب يخنق
 الأنفاس يكسو أشجار الصنوبر الصغيرة بلون
 جيري ، وإذا بطائر لم تقع عليه العين قط ،
 أصفر اللون يزينه خال أسود ، يخلد وهو
 صامت في غصن من الأغصان .

وحراس الحقول يدقون على النحاس الأصفر ليفزعوا الغربان التي تأتي
 في أسراب سماوية كبيرة على البرتقال . . . حتى إذا وصلنا إلى ظل شجرة



* هي المعروفة بأسم الشعر واسمها الإسباني مشتق من العربي (ل-ع) .

الجوز الكبيرة قطعتُ بطيختين تنفتحان عن جليدهما السكري بلونه الأحمر
القائى والوردي في صوت طويل غص ، فأكلت بطيختي على مهل وأنا
أسمع من بعيد ضوضاء القرية المقتربة ، وراح بلاتيرو يشرب لحم السكر من
بطيخته كأنه ماء .

نار في الجبال

الناقوس الضخم ... ثلاث ... أربع دقائق ... ناراً

تركنا العشاء ، ولما ضاق الصدر بالضيق الأسود للدرج الخشبي صعدنا إلى السطح في صمت أليم قلق .

-في ريف لوتينا- هكذا صاحت أنيليا التي كانت في أعلى الدار ، وهي تهبط على الدرج ، قبل أن نخرج نحن إلى الليل ..

تان تان تان تان! ولما وصلنا إلى الخارج -أي متنفس! . كان الناقوس ينقي دقته الشديدة الصائتة ويطلق ويثقل على قلوبنا .

- إنها كبيرة ، كبيرة ... إنها نار طيبة ...

بلى . في الأفق الأسود لأشجار الصنوبر كان اللهب البعيد يبدو هادئاً في نقائه المتفاوت ، كان كاللينة السوداء والزنجفر ، يشبه لوحة الصيد «لبيرو دي كوسيمو» التي تبدو فيها النار موسومة بألوان سوداء وحمراء وبيضاء صافية ، وأحياناً يتألق اللون شديداً ، وأحياناً أخرى يكاد الأحمر يكون وردياً في لون القمر الوليد ...

وليل أغسطس عالٍ وساكن ، ويمكن أن يقال إن النار فيه ستظل إلى الأبد كأنها عنصر خالد ... إذا بنجمة هاربة تعدو في وسط السماء وتهوي في الزرقة فوق «لاس مئخاس» ... أنا مع نفسي .

ولكن نهيق بلاتيرو هنالك أسفل المكان في الفناء يردني إلى الواقع ... وهبط القوم جميعاً ... وفي رعدة يجرحني فيها لين الليل الذي

يمتد إلى جنبي الثمر أحس كأنما قد مر بجانبني ذلك الرجل الذي كنت
أعتقد في طفولتي أنه يحرق الجبال ، من طراز بببي «الفرخ*» -أوسكارويلد
من أهل مغير- لكنه يميل إلى الشيخوخة ، أسمر ، في رأسه شعرات بيض
مفلقلة ، وقد ارتدى تخنثه المستدير سترة سوداء وسراويل فيها مربعات
بيضاء وبنية ، وتبرز من جيوبها عيدان كبريت طويلة من جبل طارق . . .

(*) لقب الإنسان (ل-ع) .

هذا المسيل يا بلاتيرو هو جاف
الآن ، ومنه نمضي إلى مرعى الخيل ،
يوجد في كتبي العتيقة الصفراء أحياناً
كما هو ، بجانب البشر الأعمى في
مرجه ، بفراشاته التي تغمرها الشمس
وأشجاره الهاوية ، وأحياناً أخرى يبدو
في هيئات متراكبة وتغيرات رمزية ، وقد
انتقل بإحساسي إلى أماكن نائية إما لا
وجود لها وإما يحوم حولها الظن
فقط . . .

فيه يا بلاتيرو تألق تخيلي المبتسم
أثناء طفولتي كالحسك حين يتعرض
للشمس ، واستمتعت بأول ما عثرت
عليه ، حين علمت أنه أي مسيل «لوس
إليانوس» هو نفس المسيل الذي يشطر
طريق «سان أنطونيو» من الغابة المؤلفة
من أشجار الحور المفردة ، وإذا مشى فيه
المرء ، وهو جاف في الصيف ، وصل إلى



هاهنا ؛ وإذا ألقى فيه إنسان قارباً من الفلين هناك في أشجار الحور أثناء الشتاء جاء إلى هذه الرمانات أسفل قنطرة «لاس انخستياس» ، وهي ملاذني حين تمر الثيران . . .

ما أمتع هذا لخيالات الطفولة يا بلاتيرو ، ولا أدري إن كان يتهياً لك الآن أو تهيأ لك من قبل ! كل شيء يجيء ويذهب في تغير ممتع ، يتراءى كل شيء ولا يتراءى شيء إلا كالأثر الموقوت للتخيل . . . ويمشي أحدنا كالشبيه بالأعمى ينظر كثيراً في الظاهر كما ينظر في الباطن ، وربما قلب في ظل الروح أثقال صور الحياة ، أو فتح للشمس ، كالزهرة الثابتة يضعها في شاطئ حقيقي ، شعر الروح المضئ الذي لا يلقاه بعد .

كانت جلجلة الناقوس وهي قريبة حيناً بعبدة حيناً آخر تدوي في السماء صباح العيد كأن الزرقة كلها صارت بلوراً ، وبدا الريف وهو مريض كأنه مذهب من الأنغام الساقطة للطيران الفرح المزهري .

والناس جميعاً بما فيهم الحارس ذهبوا إلى القرية ليروا الموكب ، وبقينا وحدنا أنا وبلاتيرو ، ياله من سلام! وياله من صفاء! وياله من رفاهية! وأترك بلاتيرو في المرح العالي ، وأستلقي تحت شجرة صنوبر مليئة بالطيور التي لا ترى لأطالع شعر عمر الخيام . . .

وفي الصمت الذي يبقى بين دقتين يتراءى للغليان الداخلي لصباح شهر سبتمبر وجودٌ وصوتٌ ، والزنابير السوداء تطير من حول الكرمة المثقلة بعناقيد العنب السليمة ، والفراشات التي تمشي مختلطة بالأزهار يبدو أنها تتجدد وتتخذ صورة أبي حسون وهي تطير ؛ والوحدة إنما هي فكرة ضوء عظيمة .

من حين لآخر يكف بلاتيرو عن الأكل وينظر إليّ . . . وأنا من حين لآخر أكف عن القراءة وأنظر إلى بلاتيرو

غناء الصرصر

أنا وبلا تيرو نعرف حق المعرفة من سُرّانا بالليل غناء الصرصر .

فalgناء الأول للصرصر في الشفق مهتز خفيض حاد ، ثم يغيّر النغمة ويتعلم من نفسه ، ويأخذ في الصعود شيئاً فشيئاً ويستقر في مكانه كما لو كان يلتمس اتساق المكان والساعة ، حتى إذا كانت النجوم في السماء الخضراء الشفافة اكتسب الغناء حلاوة موسيقية تشبه الجلاجل الطليقة .

والنسمات الغضة الساكنة تروح وتغدو ، وتفتح أزهار الليل من كل جوانبها ، ويسري في السهل إكسير إلهي صاف من مروج مختلطة زرقاء ، سماوية وأرضية ، ويتسامى غناء الصرصر فيملاً الريف كله كأنه صوت ظل ، ولا يتردد ولا يسكت ، وكل نغمة وكأنها تنبع من ذاته توأم لنغمة أخرى ، في أخوة من بللور تغشاه ظلمة .

وتمضي الساعات في جلالها ، لا حرب في العالم ، ويرقد الزارع وهو يرى السماء في القاع الأعلى لحلمه ، وربما مشى الحبّ بين النباتات المتسلقة لجدار وهو منتشٍ هائم والعينان في العينين ؛ وتبعث حقول الفول إلى القرية برسائل من عطر رقيق كأنها في تباب طليق ، أبيض عارٍ ؛ وسنابل القمح تتموج وهي خضراء من القمر ، وتتنفس في الريح الساعة الثامنة والثالثة والرابعة . . . وغناء الصرصر بصليله قد ضاع . . .

ها هوذا! يا لغناء الصرصر في الفجر حين أذهب أنا وبلا تيرو وقد أخذتنا الرعدة إلى الفراش تغشانا رطوبة بيضاء! والقمر يتساقط وهو أحمر

حالم والصرصر منتش من القمر ، سكران من النجوم ، رومانتىكى هائم
منتشر ، كان ذلك حين أقبلتُ سحبٌ كبيرة باكية ، يحيط بها لونٌ بنفسجي
أزرق حزين ، فانتشلت النهار من البحر على مهل . . .

مصارعة الثيران

لعلك لا تعلم يا بلاتيرو لم يأتي هؤلاء الأطفال؟ قد يُظن أنني تركتهم يحملونك ليطلبوا معك المفتاح في مصارعة الثيران هذا المساء ، ولكن لا تضق ذرعاً ، فقد نبهتهم إلى ألا يدور لهم ذلك بخلد . . . يأتون مجانين يا بلاتيرو . . . والقرية كلها في هرج ومرج من أجل المصارعة ، فالفرقة الموسيقية تعزف منذ الفجر موسيقى متقطعة متنافرة أمام الحانات ، وتروح وتغلو عربات وخيول صاعدة في الشارع الجديد وهابطة في الشارع القديم ، وهناك في الزقاق الخلفي تهباً «الكاناريو» وهي تلك العربة الصفراء التي تعجب الأطفال ليركبها حملة السهام ، والأبهاء قد خلت من الأزهار وهيئت للرئيسات ويثير الألم رؤية الصبية وهم يمشون على غير هدى في الطرقات بفبعاتهم العريضة وأرديتهم ولفائف التبغ الغليظة ، تفوح منهم رائحة الخيل والزبيب .

وفي الساعة الثانية يا بلاتيرو ، في لحظة الوحدة المشبوبة بالشمس ، في الفراغ الواضح للنهار ، بينما يلبس المصارعون والسيدات ثيابهم سنخرج أنا وأنت من الباب الخلفي ونغضي في الزقاق إلى الحقل كالعام الماضي . . . ما أجمل الحقول في أيام الأحاد التي يهجرها فيها الناس جميعاً! قلما يميل عجوز في كرم من الكروم أو بستان من البساتين نحو الكرمة العذراء أو النبع الصافي . . . ويتصاعد من بعيد فوق القرية الصباح المستدير وتصفيق الأكف وموسيقى حلبة المصارعة كأنها تاج غليظ ، ثم يتلاشى ذلك كله

كلما مضى المرء ساكناً إلى البحر . . . والروح «يا بلاتيرو» تحس بكونها ملكة
الجسم الكبير السليم للطبيعة التي تعطي لمن يستحق الإجلال المنظر الضارع
المتألق الخالد .

خوف ونفس مكبوت وعرق بارد ، السماء الرهيبة المنخفضة تغرق الشروق (لا مهرب لأحد) صمت ... الحب يقف ، والإثم يرتجف ، والندم يُغمض العيون .

صمت آخر ...

الرعد وهو أصم مدوّ لا ينتهي ، كأنه تثاؤب لم ينقض ، أو حمل ثقيل من الحجر يسقط من سمت السماء على القرية ، يجتاز بطوله الصباح المهجور . (لا مفر لأحد) والأشياء الضعيفة كالأزهار والأطيّار تختفي من الحياة ...

وينظر الفرعُ خائفاً من النافذة نصف المفتوحة إلى الله المتجلي في جبروته ، وهنالك في المشرق تتراءى بين قطع السحاب أزهار الخبازي وورود حزينة متسخة باردة لا تستطيع أن تهزم السواد ، وعربة الساعة السادسة التي كأنها الساعة الرابعة تقبع في الزقاق غارقة في فيضان ويغني سائقها ليخيف الفرع ، ثم تتلوها عربة الحصاد فارغة تكرر بسرعة ...

وإذا بملك ملك شديد في عزلة ينتحب بين الرعد . هل هو آخر ملك في العالم؟ ويود المرء لو يكفّ الناقوس عن دقاته سريعاً أو يدوي بشدة ليغرق العاصفة ، ويذهب المرء من مكان إلى آخر ويبكي ولا يدري ماذا يريد ...

(لا مفر لأحد) القلوب متوترة والأطفال ينادون من كل مكان ...

- ترى ماذا وقع لبلاتيرو وهو وحده في زريبة الفناء وليس فيها ما

يحميه؟

قطف العنب

في هذا العام يا بلاتيرو ما أقل الحمير التي أتت بالعنب! لا جدوى فيما تقوله اللافطات الكبيرة: بستة دراهم . أين حمير «لوثينا» و«المونت» و«بالوس» وهي محملة بذهب سائل مضغوط يقطر ، مثلك معي ، دماً ؛ تلك الحمير التي كانت تنتظر ساعات وساعات إلى أن تُفرغ المعاصر ، والعصير يتدفق في الشارع ، والنساء والأطفال يملؤون الجرار والأباريق والقدر

ما كان أشد فرح معاصر الخمر في تلك الآونة يا بلاتيرو ، معصرة «ديشمو»! تحت شجرة الجوز الكبيرة التي سقط عريشها كان عاصرو الخمر يغسلون الرِّقاق ، وهم يغنون ، بحركة غضة صائتة ثقيلة ، ثم يمضي الذين يفرغون العصير في الأواني وأرجلهم عارية وبأيديهم جرار العصير أو دم الثور وهو يتراءى حياً مزبداً ، وهناك في الداخل تحت الطنف بدق صانعو البراميل دقات مدوية وهم في نشارة الخشب النظيفة التي تفوح بالرائحة كنت أدخل «الميرانت» من باب وأخرج من باب آخر وهما البابان الفرعان اللذان يهب كل منهما للآخر مظهر الحياة والضوء - بين عطف الذين يعصرون الخمر

عشرون معصرة كان يطوُّها هؤلاء ليلاً ونهاراً ، يا للجنون واختلال العقل ويا للتفاؤل الشديد! وفي هذا العام يا بلاتيرو كل المعاصر نوافذها مغلقة ، ومعصرة الفناء وبها اثنان أو ثلاثة من الذين يعصرون ، فيها الكفاية والغناء . والآن يا بلاتيرو لا بد أن تعمل شيئاً فلا يجوز أن تظل دائماً كسلان .

... وظلت الحمير الأخرى تنظر وهي محملة إلى بلاتيرو وهو طليق
من أهل البطالة ، وليكلا يريدوا به شراً أو يظنوا به السوء ذهبت معه إلى
الكرمة المجاورة وحملته عنياً ومضيت به إلى المعصرة على مهل بين
الحمير ... وبعد ذلك أخذته من هناك في الخفاء ...

تترامى في القرية وهي في العيد مضاعة بحمرة نحو السماء أنغام فالس
حادة لها حنين في الريح الرقيقة ، وبتراءى البرج مغلقاً داكناً صامتاً في برزخ
بنفسجي أزرق مصفر . . . وهناك خلف معاصر الخمر المظلمة في ربض
القرية يطلع القمر وهو متساقط مصفر حالم على النهر .

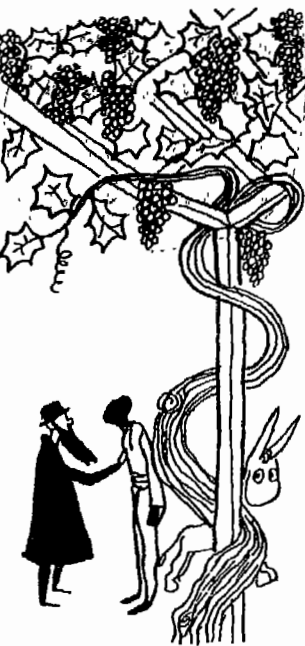
الريف وحده مع أشجاره وظل أشجاره ، وهناك غناء متقطع لصرصر ،
وحديث المياه الخفية كحديث المتكلم في النوم ، وطراوة رطوبة كأن النجوم
تنحل وتتفكك . . . وبلا تيرو من الجو الفاتر في مسكنه ينهق بحزن .

العنز تمشي متيقظة وجرسها يواصل دقاته في هيجان أول الأمر وفي
حلاوة بعد ذلك وأخيراً يسكت . . . وعلى بعد في ناحية «منتيمايور» ينهق
حمار آخر . . ثم ثالث ينهق في «فاليخويلو» . . . وينبجُ كلب . . .

والليلة من الصفاء بحيث تُرى الأزهار من لونها كشأنها أثناء النهار ،
وعند آخر دار من دور شارع «لافويئت» تحت قنديل أحمر يتذبذب ، يعرج
في الزقاق رجل منفرد

أنا؟ . كلا ؛ أنا في الظل السماوي العاطر المتحرك الذهبي الذي يصنعه
القمر وتصنعه أزهار اللعل والنسمة والظل ، أصغي إلى قلبي العميق
وحده . . .

والكون يتحرك وهو غص يتصبب عرقاً . . .



كنت ذات مساء في كرمة المسيل
لأقطف العنب ، فجاءت النساء يقلن لي إن
أسود يسأل عني ، وكنت في طريقي إلى
الكرمة حين أتاني من أسفل الطريق :

- سريتو

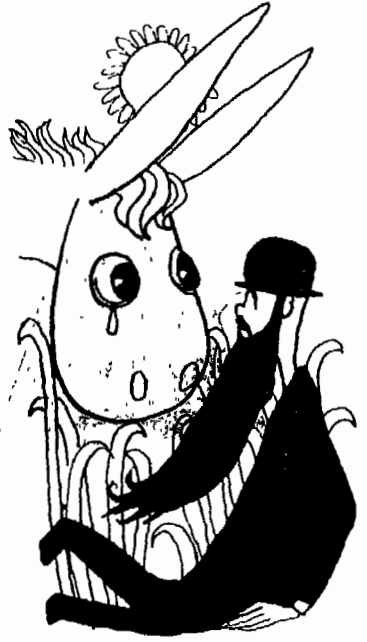
وكان سريتو خادماً «رُوسالينا» منخطوبيتي
البورتوريكية ، هرب من إشبيلية ليصارع
الشيران في القرى ، وقدم من «لَبلة» ماشياً ،
ورداؤه ، الملون مرتين ، على كتفه ، وهو جائع
لا مال معه .

وكان قاطفو العنب ينظرون إليه شزراً ،
بازدراء سيئ . غير ظاهر ، والنساء يتجنبنه
من أجل الرجال أكثر مما يتجنبنه من أجل
أنفسهن ، وكان قبل أن يمضي إلى المعصرة
قد صارع فتى قطع أذنًا له عضها .

تبسّمتُ له وتحدثت إليه برفق ، وراح سريتو ، ولم يجروء على أن
يدللني ، يدلل بلاتيرو الذي كان يمشي هناك ويأكل من العنب ، وجعل
ينظر إليّ طويلاً نظرة كريهة .

الرقدة الأخيرة في العصر

يا للجمال الحزين الأصفر الذي
لا لون له ، جمال الشمس بعد
الظهيرة حين أستيقظ تحت شجرة
التين! نسمة جافة معطرة من الشعرة
المنتشرة تدلل يقظتي التي تتصبب
عرقاً ، والأوراق الكبيرة للشجرة
العتيقة الرقيقة تتحرك حركة خفيفة
فتحزنني أو تبهرني ، كأنها تهدهدني
برقة في سرير يذهب من الشمس
إلى الظل أو من الظل إلى الشمس .
وعلى بعد تدق الأجراس معلنة
الساعة الثالثة . في القرية المهجورة
بعد الحفيف البلوري للهواء ، ولما
سمعتها بلاتيرو ، وكان قد سرق مني
بطيخة كبيرة بها جليد سكري أحمر ، نهض على قدميه جامداً ونظر إليّ
بعينين هائلتين حائرتين تمشي فيهما ذبابة خضراء تسيل منها مادة لزجة .
وبإزاء عينيه المكدودتين تعبت عيناى مرة أخرى ... وتبللت النسمة
كأنها فراشة تريد أن تطير ، ولكن ينطوي جناحها على حين غرة ...
جناحها .. جفناى الضعيفان اللذان يغمضان على حين غرة ...



كنا في الليالي التي نسهرها في شهر سبتمبر نتخذ مكاننا على التل القائم خلف الدار التي في البستان لِنُحْسَ بالقربة وهي في عيد ، من ذلك السلام العاطر الذي ينبعث من الناردين في البركة ، وكان «ببوئا» حارس الكروم العجوز وهو سكران في أرض الكرمة ، يعزف بُزُقَه ووجهه إلى القمر . وفي المساء كانت تشتعل النيران ، فهي أولاً ألسنة صماء صغيرة ، وهي بعد ذلك نجوم من غير ذنب تتفتح إلى أعلى وهي تتنفس ، كأن عيناً نجمية ترى الريف في لحظة من اللحظات أحمر وبنفسجياً وأزرق ؛ وأخرى يتساقط ضوءها كأنها بكارة عارية يتثنى ظهرها ، كصفصافة من دم تقطر أزهاراً من الضوء .

يالها من طواويس متقلدة ، وكتل خيالية من الورد الصافية ، وديوك برية من النار في جنات النجوم!

وبلاتيرو كلما صَوّت صوت ارتعد فرقاً وهو أزرق وبنفسجي وأحمر في الضوء المفاجئ للفراغ ، وفي الوضوح المتذبذب الذي يكبر ظله ويطامن منه على التل ؛ كنت أرى عينيه الكبيرتين السوداوين وهما تنظران إليّ في فرع . وأخيراً يصعد إلى السماء المزدانة بالنجوم بين الأصوات البعيدة للقربة الإكليل الذهبي الدائر للحصن وصاحب الرعد الغليظ الذي يغمض العيون ويغطي أسماع النساء ، وبلاتيرو يفرّ بين الكروم العذراء كأنه روح يحملها الشيطان ، وهو ينهق في جنون ، إلى أشجار الصنوبر الهادئة في الظل .

الروضة

أردتُ وقد جئنا إلى العاصمة أن يرى بلاتيرو الروضة . . . وصلنا على مهل والنافذة أسفل منا في الظل الناعم لأشجار الطلح وأشجار الموز المحملة بثمراتها وكان لخطو بلاتيرو صوتٌ في البلاطات الكبيرة التي تلمع من السُّقيا ، وهي في مواقع زرقاء من السماء ، وفي مواضع أخرى بيضاء من الزهر الساقط الذي ينبعث منه مع الماء عطر حلو رقيق .

يا للنضارة وللعطر اللذين يخرجان من البستان يرطِّبه الماء أيضاً بتتابع أضواء اللبلاب في النافذة وهو يقطر! وفي الداخل يلعب الأطفال ، وبين توجُّهم الأبيض تمر عربة الطريق ولها صخب وجلبة بأعلامها البنفسجية وغطائها الأخضر ، ثم قارب بائع البندق وكله مزدان بالعقيق والذهب مع الجبال المرصعة بالفول السوداني ومدخنته المغبرة ، والطفلة التي تحمل النفاخات معها عنقودها الضخم الطائر الأزرق والأخضر والأحمر ، والملاح مستسلم تحت عارضته الحمراء . . . وفي المساء حيث كتلة الخضرة التي مستها شرور الخريف وحيث أشجار السرو والنخيل تدوم وهي في خير ثيابها ، يمضي القمر المصفر محترقاً بين السحب الوردية . . .

وهناك في الباب إذ أهم بدخول الروضة يقول لي الرجل الأزرق الذي يحرسها بعصاه الصفراء وساعته الفضية الكبيرة :

- يُمنع دخول الحمار يا سيدي .

- الحمار؟ أي حمار؟

قلت له ذلك وأنا أنظر فيما وراء بلاتيرو وقد نسيتُ بطبيعة الحال
صورته الحيوانية .

- أي حمار كان يا سيدي! أي حمار .!
عندئذ عدت إلى الواقع ، وإذا كان بلاتيرو «لا يجوز له أن يدخل»
لكونه حماراً فأنا لكوبي إنساناً لا أريد أن أدخل وإنما أمضي معه مرة أخرى ،
والنافذة في أعلى ، وأنا أدلّله وأتحدث إليه عن شيء آخر . . .



شرب بلا تيرو شربتین من الماء
مع نجوم في بئر الفناء ثم عاد إلى
زريبتة على مهل هائماً بين أزهار
عباد الشمس العالية ، وكنت أنتظر
على الباب وأنا مستلق على الحافة
الجيرية وملتف في العطر الرقاق
لعباد الشمس .

وعلى السطح الرطب من لين
شهر سبتمبر ينام الريف البعيد
الذي جعل يرسل نفساً قوياً من
أشجار الصنوبر ، وإذا بسحابة كبيرة
سوداء كأنها دجاجة ضخمة تضع
بيضة ذهبية أتت بالقمر فوق التل .

قلت للقمر : ولكن ...

ينبغي أن تكون وحدك في السماء .

حتى لا يراك أحد وأنت تسقط إلا في الأحلام .

وظل بلا تيرو يحرق فيه طويلاً ثم حرك إحدى أذنيه بجلبة شديدة

لينة ، ونظر إليّ وهو حيران وهزّ الأذن الأخرى ...

فرحة

بلاتيرو يلعب مع «ديانا» الكلبة الجميلة البيضاء التي تشبه القمر
النامي ومع العنزة العجوز الرمادية ومع الأطفال ..

تثب ديانا في براعة ورشاقة أمام الحمار ويجلجل جرسها الخفيف
وتأتي بحركات كما لو كانت تعضه في وجهه ، وبلاتيرو يرفع أذنيه كأنهما
قرنا صبارة ، ويهاجمها ويجعلها تحوم حول العشب المزهر .

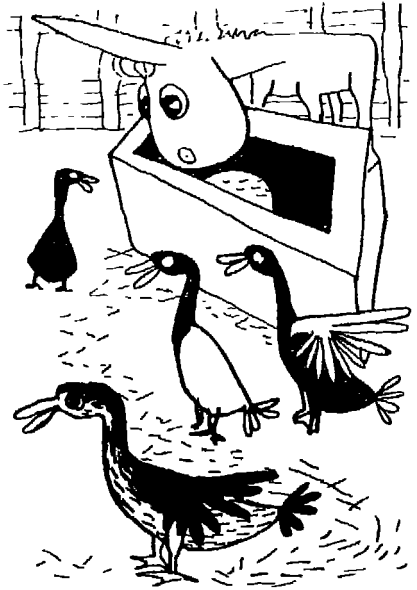
والعنزة تمضي إلى جنب بلاتيرو وهي تمسح بأرجله ، وتجذب بأسنانها
أزهار ذنب الهروهي في الحمل . ثم تظهر أمامه وفي فمها خزامى وأقحوانة ،
وتمس جبهته ، ثم تثب بعد ذلك ، وتثغو وهي فرحة ، لها دلال كأنها
امراة ...

وبلاتيرو بين الأطفال ألعوبة ، ما أعظم صبره على حماقاتهم! عجباً له
وهو يمضي على مهل ويتوقف ويتباله حتى لا يسقطوا! ثم لا يلبث أن
يُفزعهم إذ يبدأ بخطو زائف!

يا لها من أمسيات صافية للخريف في مغير! حين يشحذ الهواء النقي
في شهر أكتوبر الأصوات التي تصعد من الوادي في جلبة شاعرية من
الوثبات والنهيق وضحكات الأطفال ونباح الكلاب ودقات الأجراس ...

البطاط تمضي

ذهبت لأعطي بلاتيرو
ماء ، وفي الليلة التي يكسوها
جلال وكلها سحب هائمة
ونجوم ، يتراعى إلى السمع في
أعلى الأماكن ، من صمت
الريف ، تتابع متصل لهزات
صافية . إنها البطاط ، تمضي
إلى الداخل هاربة من
العاصفة البحرية ، ويستمع



المرء من حين لآخر كأننا نصعد أو كأنها تهبط ، إلى الحفيف الخفيف
لأجنحتها ومناقيرها كأنما تسمع في الربف لفظة واضحة ينطق بها إنسان
يمضي بعيداً ...

وبلاتيرو يكف من حين لآخر عن الشرب ، ويرفع رأسه كما أرفعها

وكما ترفعها نساء ميليه* إلى النجوم بحنين غص لانهائي .

(*) جان فرانسوا ميليه رسام فرنسي اشتهر برسم المناظر الطبيعية (١٨١٥-١٨٧٥) .

طفلة صغيرة

كانت الطفلة الصغيرة مجد بلاتيرو ، لا يكاد يراها مقبلة نحوه بين الشجيرات ذات الأزهار البيضاء والحمراء في ثوبها الأبيض وقبعته المصنوعة من قش الأرز وهي تناديه بحنان : بلاتيرو ، بلاتيريؤا ! «حتى لو حطمت الزريبة وقفز كأنه طفل ونهق بجنون» .

تمضي في ثقة عمياء مرة وأخرى من تحته وتلطمه وتترك له يدها وهي ناردين طاهرة في ذلك الفم الوردي الكبير المزدان بأسنان كبيرة صفراء ، أو تأخذه من أذنيه اللتين يضعهما في متناول يدها وتناديه بشتى صيغ التدليل لاسمه :

بلاتيروا بلاتيرون! بلاتيريؤا! بلاتيريئي! بلاتيرئشوا!
وفي الأيام الطويلة التي أبحرت أثناءها الطفلة في مهدها الفجري أسفل النهر نحو الموت لم يذكر أحد بلاتيرو ، وكانت في هذيانها تناديه بحزن : بلاتيرو ...

ومن الدار المظلمة المليئة بالزفرات كان يسمع أحياناً النداء البعيد الشاكي للصديق ، يالك من صيف حزين!

يا للترف الذي وضعه الله فيك يا مساء اللحد! وكان سبتمبر الوردي الذهبي كما هو الآن ينحدر ويميل ، ومن المقبرة ، يا لدقات ناقوس العودة في الغروب المفتوح على طريق المجد! ... عدتُ من طريق الطوابي وحدي وأنا حزين كئيب ، ودخلت الدار من باب الفناء ، ومضيت وأنا هارب من الناس إلى الزريبة وجلست أفكر مع بلاتيرو .

في التل الذي جعلته الساعة البنفسجية مظلماً مرتجفاً راح الراعي الصغير وهو أسود في الغروب الأخضر للبلور ، يصفر في مزماره تحت اهتزاز فينوس والأجراس الصافية الحلوة للقطيع الذي تفرّق لحظة قبل أن يدخل القرية في المكان المعهود ، تصلصل وهي ساكنة متداخلة في الأزهار التي يزداد فرحها ولا تبدو للعين ولكن يمجّدها العبير حتى ليكاد يعطيها صورة مجسمة في الظل الضائعة فيه .

- يا سيدي ، لو كان هذا الحمار لي . .

وكان الصبي ، وهو أشد سمة وشِعْراً في الساعة الموحية بالشك ويلتقط في عينيه السريعتين كل بريق لساعته ، كأنه واحد من أولئك الشحاذين الذين رسمهم الإشبيلي الطيب «بارثولومي استبان» .

وهممت أن أقول للحمار . . . ولكن ماذا أفعل بدونك يا بلاتيرو؟

وأخذ القمر الذي يتصاعد مستديراً فوق صومعة «مونتمايور» ينشر نوره برقة في المرج الذي ما فتئت تطوف به أضواء النهار العائمة ، والأرض المزدهرة في تخيل لمن يراها كأنها من عالم الأحلام وما لا أدريه من وعاء بدائي جميل ، والصخور أكبر وأقرب وأشد حزناً ، وماء المسيل يبكي ولا يُرى . . .

والراعي الصغير يصيح من بعيد وهو طامع :

آي . . . ! لو كان هذا الحمار لي . . .

الكناري يموت

انظر يا بلاتيرو ، كناري الصبية أصبح اليوم ميتاً في قفصه الفضى ،
حقاً . لقد كان المسكين هرمًا . . . فأنت تذكر جيداً أنه قضى الصيف الأخير
ساكتاً ورأسه مختفٍ في زغبه ، ولما دخل هذا الربيع والشمس قد صنعت
من المنزل المفتوح جنةً من الجنات وتفتحت أحسن ورود البهو ، أراد هو أيضاً
أن يحتفل بالحياة الجديدة وغنى ، ولكن صوته كان متقطعاً مبهوراً كأنه
صوت مزمار منكسر .

ورآه أحد الصبية ، وكان يرعاه ، جامداً لا حراك به في قاع القفص
فأسرع وهو يبكي ويقول :

- ولكن لم يكن ينقصه شيء ، لا طعام ولا ماء ! .

بلى لم يكن ينقصه شيء يا بلاتيرو ؛ مات لأنه كذلك كما يقول
كامبو أمور* وهو كناري آخر عجوز . . .

يا بلاتيرو ، هل للطير فردوس؟ هل هناك روضة خضراء فوق السماء
الزرقاء كلها أزهار من ورود ذهبية لها أرواح طيور بيضاء ووردية وسماوية
وصفراء؟ اسمع ، في الليل سنهبط أنا وأنت والصبية بالطائر إلى الحديقة ؛
القمر الآن ممتلئ ، ولدى فضته الشاحبة سيبدو المغني المسكين في اليد
الطاهرة «لبلانكا» كأنه ورقة حزينة لسوسنة مصفرة ؛ سندفنه في أرض

شجرة الورد الكبيرة .

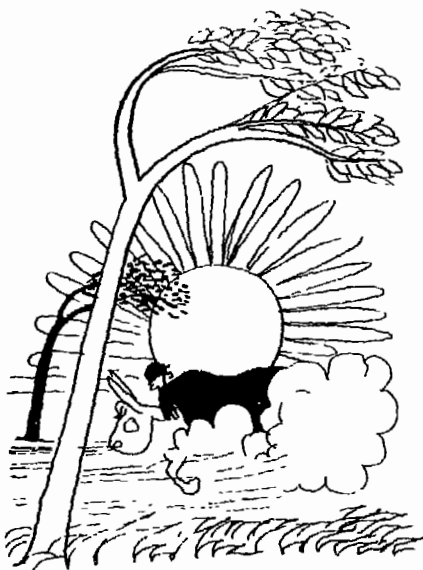
وفي الربيع يا بلاتيرو سنرى الطائر يخرج من قلب وردة بيضاء ويتمثل
الهواء العاطر مغرداً ، ويتراءى في تلمس أبريل تطواف ممتع لأجنحةٍ تظهر
وتيار سري سائل لأنغام متعاقبة صافية من الذهب النقي .

لم ترني قط يا بلاتيرو وأنا مستلق في التل رومانتيكياً وكلاسيكياً في
آن واحد .

تمر الثيران والكلاب والغربان وأنا لا أتحرك بل لا أكاد أنظر ، ويجيء
الليل ولا أذهب إلا حين يتركني الظل ، لا أدري متى رأيت نفسي هناك
لأول مرة بل أشك في أنني كنت هناك ، أنت تعلم أيّ تل أعني . إنه ذلك
التل الأحمر الذي ينهض ، كأنه تمثال رجل وامرأة ، على كومة «كوبانو»
العتيقة .

فيه قرأت جل ما قرأت وفكرت كل أفكار ، وفي جميع المتاحف
رأيت لوحتي هذه التي رسمتها بنفسي ، أنا ، في لون أسود ، مستلق في
الرمل ، وظهري تلقائي ، أعني تلفاءك أو تلقاء من قد ينظر ، وفكرتي طليقة
بين عيني والمغرب .

ينادونني من دار «لابنّيا» لعلي أمضي لآكل أو أنام ، وأظن أنني أذهب
ولكن لا أدري إن كنت باقياً هناك ، وأنا على يقين يابلاتيرو أنني الآن لست
ها هنا معك ، لا حيث أنا ، ولا في القبر ميتاً ، بل في التل الأحمر
الكلاسيكي الرومانتيكي في آن واحد ، أنظر وفي يدي كتاب مفتوح ،
غروب الشمس فوق النهر . . .



أخذت الشمسُ يا
بلا تيرو تتكاسل عن الخروج
من مُلاءاتها والزراع يبكرون
أكثر منها ، حقاً الدنيا عارية
والجو بارد .

يا لريح الشمال وهي
تهب : انظر في الأرض إلى
الغصون الساقطة ، والريح من
الحدة والاستقامة بحيث إن
الأغصان جميعاً متوازية
أطرافها إلى الجنوب .

المحراث يمضي كأنه

سلاح خشن من أسلحة الحرب ، إلى العمل الفرح من أعمال السلام يا
بلا تيرو ، وفي الطريق الضيق الرطب تضيء الأشجار الصفراء بحيوية سيرنا
السريع وهي موقنة من الخضرة في كل جانب كأنها نيران رقيقة من الذهب
الصافي .

الكلب المربوط

دخول الخريف بالنسبة لي يا بلاتيرو كلب مربوط ينبج نباحاً نقيّاً
طويلاً في عزلة الفناء أو في عزلة بهو من الأبهاء أو بستان وكلها تأخذ عند
المساء في التحول إلى البرد والحزن . . . وحيثما كنت يا بلاتيرو أسمع في
هذه الأيام التي تزداد صفرة كل حين الكلب المربوط ينبج شمس الغروب . .
ونباحه يثير في نفسي الرثاء على نحو لا يشيره شيء آخر، إنها
اللحظات التي تمشي أثناءها الحياة كلها في الذهب كما يمضي قلب البخيل
في آخر فلّس من كنزه الخرب .

والذهب يكاد يوجد مجموعاً في الروح ببخل وقد وضعت في كل
مكان ، كما يأخذ الأطفال الشمس بقطعة من المرأة ويحملونها إلى الجدران
في الظل ويجمعون في شيء واحد بين صورة الفراشة وصورة الورقة
الجافة . . .

العصافير والشحارير تمضي صاعدة من غصن إلى غصن في شجرة
البرتقال أو في شجرة طلع وهي تزداد ارتفاعاً مع الشمس ، والشمس
تستحيل وردية حمراء . . . والجمال يخلد اللحظة الهاربة كميت لا يزال حياً
إلى الأبد ، والكلب ينبحها في حدة وتوقّد ، ولعلّه يحس بها وهي تموت
لدى الجمال . . .

السلحفاة الإغريقية

لقيتها أنا وأخي أثناء عودتنا في الظهيرة من الكلية ونحن ماران في الشارع ؛ كان ذلك في شهر أغسطس -في تلك السماء ذات الزرقة القاتمة التي تكاد تكون سواداً يا بلاتيرو- ولكيلا يشتد بنا الحر جئنا من هناك لأنه طريق أقرب . . . بين الأعشاب التي في جدار مخزن الحبوب ويكاد يشبه الأرض ، يحميه قليلاً ظل الشجرة العتيقة المعهودة لنا بصفرتها وتتلأشى في ذلك الركن وهي ضعيفة من غير سلاح يحميها ؛ أخذناها والفرع يستولي علينا تساعدنا الخادم ، ودخلنا الدار ونحن نلهث من الإعياء ونصيح : سلحفاة ، سلحفاة : ثم غسلناها إذ كانت متسخة جداً وخرجت كما تخرج من أوراق التصوير رسوم مذهبة وسوداء . . .

دون خواكين دي لا أوليفا «الطائر الأخضر*» وآخرون سمعوا أصوات السلاحف قالوا لنا إنها سلحفاة إغريقية ، ثم لما درست التاريخ الطبيعي في مدرسة الجزويت لقيت واحدة مثلها في كل شيء مرسومة في الكتاب ولها هذا الاسم ، ورأيتهما محنطة في الحاجز الزجاجي وعليها بطاقة تحمل هذا الاسم أيضاً ، وعلى ذلك فلا شك يا بلاتيرو في أنها سلحفاة إغريقية .

وها هي ذي منذ ذلك الحين ، فعلنا بها الأفاعيل ونحن أطفال : فكنا نشدها من عضلتها المربعة المعينة ونقلينا بها إلى «لورد» ونبقينا أياماً كاملة

وفمها متجه إلى أعلى ، وذات مرة أطلق «الأصم» عليها رصاصة لنرى مبلغ صلابتها ، فتفجرت قطع الرصاص وانطلقت إحداها فقتلت ذكر حمام أبيض كان يشرب الماء تحت شجرة الكمثرى .

ومضت شهور وشهور دون أن يراها أحد ، ثم إذا بها تظهر ذات يوم في الفحم جامدة كالميتة ، ومرة أخرى تظهر في القصب . . وأحياناً يدل على إقامتها في مكان من الأماكن بيضات فارغة ؛ تأكل مع الدجاج والحمام والقنابر ، وأكثر ما يروقها الطماطم ، وأحياناً تشرف على الفناء وتبدو كأنها استخرجت من سيخوختها الجافة الخالدة المنفردة فرعاً جديداً ، وأنها ولدت لتعيش قرناً آخر . . .



انقضت الإجازات وعاد
الصبية مع أولى الأوراق الصفراء
إلى المدرسة . وحدة . شمس
الدار ولها أيضاً أوراق ساقطة تبدو
فارغة ، وتصوت في التوهم
صيحات نائية وضحكات بعيدة .
وفوق أشجار الورد التي
لاتزال بزهرها يهبط المساء على
مهمل ، وأضواء الغروب تأسر
الورود الأخيرة ، والجنة إذ ترتفع
كأنها لهب من العطر نحو حريق
المغرب تفوح كلها بورود محترقة . صمت .

وبلاتيرو ، وهو مثلي ضيق الصدر ، لا يدري ما يفعل ، ثم إذا به يقبل
نحوي شيئاً فشيئاً ويشك لحظة وأخيراً تغمره الثقة ويطأ الأحجار بجفاف
وشدة ويدخل معي الدار . . .

٨٩ أنطونيا

أتى المسيل بماء كان من الكثرة بحيث جعل أزهار السوسن البري وهي زينة ذهبية لحوافيه في الصيف تغرق في فُرقة منعزلة ، واهبة التيار الهارب جمالها ورقة ورقة ...

تُرى من أين ستجتازه «أنطونيا» بثوبها الأحدي؟ الأحجار التي وطئناها غرقت في الوحل ، ومضت الفتاة نحو أعلى الشاطئ إلى سياج أشجار الحور لترى هل تستطيع أن تجتازه من هناك ... ولم تستطع ... عندئذ أعطيتها بلاتيرو الظريف .

ولما أكلت أنطونيا اتقدتُ كلها ، وحمرتها تحرق الشامات التي أذكت الوفاء في محيط نظرتها الحزينة ، لم تلبث أن انفجرت ضاحكة تلقاء شجرة ...

وأخيراً حَزَمَت أمرها ، فنزعت من العشب منديلاً وردياً من نسيج خفيف ، وجرت لحظة ، ثم في براعة النملة ثبتت على بلاتيرو وقد علقت على جانبيه رجلَيْها الصليبتين اللتين تحيطان في نضج لا يرتاب المرء فيه بالدوائر الحمراء والبيضاء للجوارب المرسجة .

وفكر بلاتيرو لحظة ثم وثب وثبة ثابتة استقر بعدها على الضفة الأخرى ، وبعدئذ أخذت أنطونيا التي كان المسيل بين حمرة خجلها وبينني ، ترُقسه في بطنه ، فانطلق يركض في السهل بين الضحك الذهبي والفضي للفتاة السمرء الجريئة .

... كان الجو يفوح بالسوسن والماء والحب ، وبيت الشعر الذي أنطق
به شكسبير كليوباترة كان يعصب تفكيري المستدير كأنه تاج من الورود
بأشواكها :

يا لك من حصان سعيد بحيث تحمل ثقل أنطونيو!
وأخيراً صحت به في غضب وعنف وشدة
- بلاتيروا

العنقود المنسي

مضينا جميعاً إلى الكروم بعد أمطار أكتوبر الطويلة في الذهب السماوي لليوم المفتوح ، وكان بلاتيرو يحمل طعام العصر وقبعات الصبايا في جانب من الخرج ، ويحمل في الجانب الآخر بلانكا رقيقة بيضاء وردية كزهرة البرقوق .

ما أمتع الريف المتجدد! كانت المسایل فياضة والحقول محروثة في لين ؛ وفي أشجار الحور التي على جوانب الطرق ، ولاتزال مكلّلة بالأزهار الصفراء ، تتراءى الطيور السوداء ، وإذا بالصبايا يجرين واحدة إثر الأخرى وهن يصحن :

- عنقود! عنقود!

في كرمه عذراء عتيقة لا تزال تبدي فروعها الطويلة المتشابكة بعض الأوراق الجافة المسودة والحمرة كانت الشمس اللاذعة توقد عنقوداً من العنبر صافياً سليماً يتألق كأنه امرأة في خريفها . كلهن رغبُن فيه! فكتوريا التي أخذته حمته بظورها ، عندئذ سألتها إياه فأعطتنيه راضية مختارة في طاعة حلوة تهبها لرجل طفلة في طريقها إلى أن تكون امرأة .

وكان في العنقود خمس حبات ، فأعطيت «فكتوريا» حبة ، وبلانكا حبة أخرى ولولا حبة ثالثة ورابعة «لبيا» وهن الأطفال : أما الحبة الأخيرة فأعطيتها بين الضحكات والتصفيق الجماعي لبلاتيرو الذي أخذها بأسنانه الكبيرة .

أنت لم تعرفه يا بلاتيرو ، فقد حملوه قبل أن تأتي ، منه تعلمت النبئ ، واللوحه التي عليها اسمه لاتزال كما ترى في مكانها فوق المعلق الذي كان له ، وفيه مقعده وأكلته ورسنه .

يا له من وهم حين دخل الفناء لأول مرة يا بلاتيرو! كان متموجاً ، وداخلتني معه طاقة من القوة وحيوية الفرح ، ما أجمله! كنت كل صباح أذهب معه مبكراً جداً أسفل الشاطئ فيظل يركض في الغدران ، ويشير جماعات من الزريقات التي تعيش في الطواحين المغلقة ، ثم يصعد بعدئذ في الجادة ، ويدخل يركض شديد مقفل من الشارع الجديد .

وذات مساء من أمسيات الصيف جاء إلى منزلي المسيو دُوبون صاحب معاصر الخمر في «سان خوان» وسوطه في يده ، ترك على المسرحه بعض التذاكر ومضى مع «لورد» إلى الفناء ، ولما غربت الشمس بعد ذلك رأيت من النافذة وكأنني في حلم ، المسيو دوبيون يمر مع «الميراثي» مربوطاً في عربته وهي تصعد الشارع الجديد في المطر .

لا أدري كم من الأيام مضت كان فيها قلبي مأخوذاً ، كان لا بد من دعوة الطبيب وعولجت بالبروم والأثير وما لا أدريه من أشياء أخرى ، إلى أن أزاله الزمن ، وهو يحو كل شيء ، من ذاكرتي كما أزال «لورد» والطفلة أيضاً يا بلاتيرو . بلى يا بلاتيرو لو عاش لكنت أنت و«الميراثي» خير صديقين .

يا بلاتيرو ، في الأخاديد الرطبة اللينة المتوازية في الأرض المظلمة الحديثة العهد بالحرث ويجري فيها مرة أخرى ركض خفيف للبذور المنقولة عن مكانها ، تبث الشمس التي يقصر طريقها عند الغروب ، تيارات طويلة سائلة من الذهب الحساس ؛ والطيور الخائفة من البرد تمضي في أسراب كبيرة عالية إلى «المورو» ؛ وأخف هبة من هبات الريح تعري غصوناً كاملة من آخر أوراقها الصفراء .

والفصل يحثنا على أن ننظر إلى روحنا يا بلاتيرو ، ولدينا الآن صديق آخر : الكتاب الجديد المختار الكريم ، والريف يتراءى لنا مفتوحاً لدى الكتاب المفتوح وهو جدير في عُرْيهِ بالتفكير اللانهائي المتماسك المنفرد .

انظر يا بلاتيرو ؛ هذه الشجرة قد ضمت نومنا منذ أقل من شهر بخضرتها وحفيفها ، وصارت وحدها صغيرة جافة مع طائر أسود بين الأوراق التي بقيت لها متطامنة فوق الحمى الحزينة الصفراء للمغرب السريع .

قهرة السمك

مغير يا بلاتيرو من شارع «أثنيا» قرية أخرى ، هناك يبدأ حي الملاحين فالناس يتحدثون بطريقة أخرى وعبارات بحرية وصور طليقة براقه ، يتألق الرجال في ملبسهم ويتخذون سلاسل ثقيلة ويدخنون لفائف التبغ الجيدة والغلايين الطويلة .

ما أعظم الفرق بين رجل قنوع جاف ساذج من أهل «كاريتريا» مثل «رابوسو» وآخر مرح وأشقر مثل «بيكون» الذي تعرفه من أبناء شارع «ربيرا» .

«جرانا ديليا» ابنة قيم كنيسة سان فرنسكو تقطن شارع «كورال» ؛ إذا هي جاءت يوماً إلى الدار جعلت المطبخ يهتز من حديثها التصويري الحي ، فالخدمات وإحداهن من «لافريسيستا» والأخرى من «مونتوريو» والثالثة من «هورنوس» يسمعنها وهن في ذهول مما تحكي ، تتحدث عن قادس وجزيرتها وجزيرة طريف وتكلم عن التبغ والتهریب وأقمشة إنجلترا وجوارب الحرير والفضة والذهب . . . ثم تخرج وهي تدق الأرض بكعبها وتتمايل في مشيتها وقد لفت جسمها الخفيف المشقوق في شال رقيق أسود مهفوف . . . ويظل الخادmates يعلقن على كلماتها ذات الألوان ، وأرى «مونتمايور» ينظر إلى قشرة سمك في الشمس وقد غطى عينه اليسرى بيده . وإذا سألتها عما يفعل قال إن «عذراء الكرمل» تتراءى في القشرة تحت قوس قزح بردائها المفتوح الموشى ، عذراء الكرمل راعية الملاحين ، وهذا حق قالت «جراناديليا» .

هذا...! هذا...! هذا...! أشد بلاهة من بنيتو!...

كدت أنسى من بنيتو هذا ، ولكن الآن يا بلاتيرو في هذه الشمس الرقيقة ، شمس الخريف التي تجعل من سياجات الرمل الأحمر حريقاً ملوناً أكثر منه حاراً ، فإن صوت هذا الصبي يريني فجأة بنيتو المسكين مقبلاً نحونا وهو يصعد في الطريق ومعه حمل من أغصان الكرم المسودة .

يظهر في ذاكرتي وينمحي مرة أخرى ، لا أكاد أذكره ، وأراه لحظة ، وهو جاف أسمر لبق مع بقية من جمال في قبحه المتسخ ، ولكن حين أروم تثبيت صورته في نفسي يفلت مني كحلم الصباح حتى لقد أنسى أنني فكرت فيه . . ربما كان يعدو في الشارع الجديد وهو عريان في صباح مائي يقذفه الصبية بالأحجار أو في الشفق الشتوي يمضي خافضاً رأسه ويتعثر في الطريق وهو يجتاز طوابي المقبرة القديمة إلى طاحونة الهواء ، إلى كهفه الذي لا يدفع له إيجاراً قرب الكلاب الميتة وأكوام القمامة ومع الشحاذين الغرباء . . . أشد بلاهة من بنيتو!... هذا... .

تُرى ماذا أقول يا بلاتيرو ولم أتكلم مع بنيتو إلا مرة واحدة! مات البائس على ما تقول «لاماكاريا» من السكر في دار «لاس كولياس» في مارستان «كاستيللو» منذ وقت طويل وقد كنت يومئذ طفلاً مثلك يا بلاتيرو ولكن هل كان أبله ، كيف ، كيف كان ذلك؟ يا بلاتيرو أنت تعلم ، وقد مات دون أن أدري كيف كان ، أنني ، وأنا على مايقول هذا الصبي ، ابن أم عرفته من غير شك ، أشد بلاهة من بنيتو .

انظر يا بلاتيرو كيف ضيقوا على النهر بين المناجم والقلب الشقي والعقبات لا تكاد إبرته الحمراء تأخذ الشمس الغاربة ها هنا وها هنا في تلك الأمسية بين الوحل البنفسجي والأصفر ، ولا تستطيع أن تمضي في مجراه سوى قوارب اللعب ما أتعسه .

كانت السفن الكبيرة المحملة بالخمور ، والمراكب الصغيرة والقوارب والفُلك مثل «اللُوبو» و«لاخُوب إلوزا» ، و«سان كيتانو» الذي كان يملكه أبي ويتولاه «كنتيرو» المسكين و«إستريليا» الذي يملكه عمي ويسير «بيكون» تضع فوق سماء «سان خوان» مزيجاً فرحاً . من سواريتها وعمدها الكبيرة التي تشير دهشة الأطفال ، وكانت تذهب إلى مالقة وإلى قادس وجبل طارق وهي غريقة مما فيها من أحمال الخمر الثقيلة . . .

وفيما بينها تعقد «اللنسات» التموّج بعيونها ورسومها وأسمائها الملونة باللون الأخضر والأزرق والأبيض والأصفر والأحمر . . . والسماكون يحملون إلى القرينة السردين والمحار وسمك الحيات وسمك موسى وأبو جلامبو . . . النحاس الأصفر في «ريوتنتو» قد سمم كل شيء ، والحمد لله يا بلاتيرو على أنه بفضل تقزز الأغنياء يأكل الفقراء الآن الأسماك الرديئة . . . ولكن الفلك والمراكب الصغيرة والقوارب قد ضاعت كلها .

يا للبؤس! المسيح لم يعد يرى المياه العالية للمدا كل ما بقي خيط خفيف من دم ميت ، وشحاذ جاف في أسماله ، والتيار الناضب للنهر ،

ولون حديد شبيه بهذا الغروب الأحمر تظهر عليه «لاستريليا» مفككة
سوداء متهاكة وقعرها المثلوم إلى السماء ، كأنها شوكة سمك ، في مكانها
المحترق حيث يعبث أطفال حرس الحدود كما تعبث الرغبات في قلبي
المسكين .

ما أجمل هذه الرمانة يابلاتيروا أرسلتها إليّ «أجدليّا» وقد اختارتها من أحسن ما عندها في وادي «لاس مُونْخاس» وما من ثمرة تجعلني أفكر كهذه الثمرة في نضارة الماء الذي يغذيها ، تتفجر عافيةً غضةً قوية ، ألا نأكلها؟ يا بلاتيروا ما أطيب الطعم المر الجاف للقشرة الشديدة العالقة كالجزر في الأرض! وهاك الحلاوة الأولى ، فلقُ استحال يا قوتة حمراء صغيرة في الحبات اللاصقة بالجلد ، وإليك يا بلاتيروا النواة المشدودة وهي سليمة كاملة بحجبها الرقيقة ، والكنز اللذيذ لأحجار الكورتز الأرجواني التي تؤكل ، شديدة كثيرة العصير ، كأنها قلب ما لا أدري من ملكة شابة!

خذ ، كل ، ما أغناها! يا للمتعة إذ تغوص الأسنان في النضج الكامل الفرح الأحمر ؛ انتظر فأنا لا أستطيع أن أتكلم ، يطيب للأكل إحساس كإحساس العين الضائعة في قصر التيه ذي الألوان القلقة للكاليدوسكوب ، انتهت!

لم يعد معي رمان يا بلاتيرو ، أنت لم تر رمان الفناء الذي في معصرة الخمر بشارع «لاس فلوريس» ؛ كنا نذهب هناك في الأمسيات . . . وكانت تتراءى من الطوابي المتداعية أفنية الدور في شارع «الكورال» ولكل منها متعته كما يُرى الريف والنهر ، وتترامى إلى السمع أصوات الأبواق التي مع حرس الحدود وأصوات كير الحداد .

كان ذلك اكتشاف جزء جديد من القرية التي لمست منها ، في شعورها

اليومي الكامل الشمس تهبط والرمال يتقد ككنوز غنية بجانب البئر في
الظل الذي يشتت شمل شجرة التين المليئة بالهلاميات . . .
يا للرملة ، فاكهة مُغير وزنة تُرسها! ويا للرمال المفتوح للشمس الحمراء
ساعة الغروب! رمال حقل «لاس مونخاس» في وادي «البرال» و«ساباييجو»
وفي الوديان المستقرة العميقة بمسايها حيث تبقى السماء الوردية في فكري
إلى أن يدخل الليل!

المقبرة القديمة

أردت يا بلاتيرو أن تدخل ها هنا معي ، ولهذا دسستك بين حمير
الحجّار دون أن يراك حفّار القبور ، ها نحن أولاء في الصمت ... هلم ...
انظر ، هذا بهو «سان خوسيه» ، وهذا الركن المظلم الأخضر بشباكه
المتداعي مقبرة القسيسين ... وهذا البهو الصغير المبيض بالجير ويختلط
لدى الغروب بالشمس المرتجفة في الساعة الثالثة بهو الأطفال ... هلم ...
«الميرانتي» ... و«دنيا بنيتا» ... وحفرة الفقراء يا بلاتيرو ...
كيف تدخل وتخرج العصافيرُ أشجارَ السرو ، انظر إليها ما أشد فرحها ،
وهذا الهدهد الذي تراه هناك في «المريميه» عشه في الكوة ... وأطفال
الحفار ؛ انظر بأي لذة يأكلون خبزهم بسمن ملون ... انظر يا بلاتيرو إلى
هاتين الفراشتين البيضاوين ... البهو الجديد ، ... انتظر ... ألا تسمع؟
الجلالجل ... إنها عربة الساعة الثالثة التي تذهب من الطريق إلى
المحطة ... وأشجار الصنوبر ، هذه هي أشجار طاحونة الهواء ... دنيا
لتجاردا ... الكابتن ... «الفريد يتوراموس» الذي أحضرته أنا في صندوقه
الأبيض وهو طفل ، ذات مساء من أمسيات الربيع مع أخي «وببيي ساينز»
و«أنطونيو ربيرو» ... صه! قطار «ريوتنتو» الذي يمر في القنطرة ... تابع
طريقك «كارمن» المسلولة ذات الجمال يا بلاتيرو ... انظر إلى هذه الزهرة
في الشمس ... هاهي ذي الطفلة ، زهرة الناردين التي ماتت رغم عينيها
السوداوين وها هو ذا أبي يا بلاتيرو ...
بلاتيرو

تنح يا بلاتيرو ودع أطفال المدرسة يمروا :

اليوم هو الخميس كما تعلم وقد جاؤوا إلى الريف ؛ في بعض الأيام يأخذهم لبياني إلى الأب «كاستيليانو» ، وفي أيام أخرى إلى قنطرة «أنجوستياس» وفي أيام ثالثة إلى «بيلا» ، واليوم يعلم الناس أن في «لياني» دعاية وهو كما ترى قد أتى بهم حتى «أرميتا» .

وقد خطر لي أحيانا أن لبياني سيعلمك الحشونة -وأنت تعلم تهذيب طفل أو نزع صفة الحمورية عنه على حد ما يقول عمدتنا ؛ ولكن أخشى أن تموت جوعاً ، لأن لبياني المسكين يعتمد بدعوى الأخوة في الله ودعوى أن الأطفال يقتربون مني على نحو ما يشرح ذلك بطريقته إلى أن يشاطر كل طفل طعامه في أمسيات الريف الذي يتردد عليه وهكذا يأكل وحده ثلاثة عشر نصفاً .

انظر ما أشد سرورهم وهم يذهبون جميعاً! الأطفال يتدفقون حيوية ، مظهرهم سيئ ، حمر نابضون قد انبعثوا بقوة حادة يفيض بها ذلك المساء الفرح اللاذع من أمسيات أكتوبر ، ومضى لبياني يختال ببدايته اللينة في حلته القائمة المزدانة بالمربعات وكانت من قبل «لبوريا» ، تبسم الحيته الكبيرة التي تتخللها شعرات بيضاء ، مؤملاً في أن يظفر بالأكلة تحت شجرة الصنوبر . . . فكان الريف يللمع في طريقه كأنه معدن متعدد الألوان ، والناقوس الغليظ الذي لا صوت الآن لدقاته القريبة يطن فوق القرية ، كأنه جُعل كبير أخضر ، في برج الذهب الذي ترى منه البحر .

الخصه

ما أجمل السماء في هذا المساء يا بلاتيرو بضوئها المعدني في الخريف
 كأنها حسام عريض من ذهب نقي . يروقني أن أجيء إلى هنا ، إذ تتراءى
 من هذا الطريق في وحدته الشمسُ وهي تغرب دون أن يكدر صفوًا أحد
 ولا نشير قلق أحد . . .

كل ما هنالك دار بيضاء زرقاء بين معاصر الخمر والجدران المتسخة التي
 تحيط بالقراص والفجل حتى ليتمكن أن يقال أنه لا يقطنها أحد ، هذا هو
 الريف الليلي الملائم لحُب «لاكولييا» وابنتها ، هاتان الصبيتان البيضاوان
 المتشابهتان تقريباً ، عليهما دائماً الثياب السوداء ؛ في هذه الحفرة مات
 «بنيتو» وظل يومين دون أن يراه أحد ، وها هنا وُضعت المدافع حين جاء
 الجند الذين يطلقونها ، وها هنا كان دون «اجناثيو» الذي رأته في طمأنينة
 بما معه من زبيب مهرب ، هذا إلى أن الشيران تدخل من هنا قادمةً من طريق
 «لاس انجستياس» ولا وجود حتى للصغار .

... انظر إلى الكرمة من خلال العقد الذي يعلو قنطرة الوادي ، وهي
 حمراء متداعية ، وفي نهايتها أفران الأجر والنهر البنفسجي ، انظر إلى
 الغدران وحدها ، انظر إلى الشمس الآفلة وهي تتجلى كبيرةً حمراء كأنها
 إله يمكن النظر إليه ، كيف تستهوي الناسَ جميعاً وتغوص في حدود البحر
 وراء والبة ، في العمق المطلق الذي يستسلم له العالم ، أعني مغير ، ريفها ،
 أنا وأنت يا بلاتيرو .

حلبة الثيران القديمة

تمر أمام عيني مرة أخرى يا بلاتيرو في ومضة ضوء سريعة لا سبيل إلى التقاطها صورة تلك الحلبة القديمة ، حلبة الثيران التي احترقت ذات مساء ... من ... احترقت لا أدري متى ... ولا أدري أيضاً كيف كانت من الداخل ... أتذكر أنني رأيت -أو هل كان ذلك في رسم من رسوم الشيكولاتة التي كان يعطينيها «مانوليتو فلوريث»؟- كلاباً صغيرة رمادية كأنها من مطاط ألقى بها في الهواء ثوراً أسود ... وعزلة مطلقة دائرية مع عشب مرتفع شديد الخضرة ... كل ما أعلمه كيف كانت من الخارج ، أعني من أعلى ، أي ما لم يكن حلبة ... ولكن لم يكن فيها أحد ... جعلت أطوف وأنا أعدو براقبي شجرة الصنوبر لعلني أجد نفسي في حلبة ثيران جيدة حقة كتلك التي في الرسوم ، ولكنها أعلى منها ؛ وفي غروب الماء الذي جعل يأتي من فوق ، نفذ إلى روعي منظرٌ بعيدٌ لخضرة سوداء في الظل ، أعني في برد السحب ، وأفقُ أشجار الصنوبر يتراءى فوق بريق منفرد خفيف أبيض هنالك فوق البحر

لا شيء بعد ذلك ... ما مدى الوقت الذي كنت فيه هناك؟ من انتزعني؟ متى كنت؟ لا أنا أدري ولا أحد خبرني به يا بلاتيرو ... ولكن الكل يجيبونني حين أحدثهم عنه :

بلى ، حلبة «الكاستيللو» هي التي احترقت ... حينئذ بلى . جاء مغير مصارعو ثيران ...

كان المكان من الوحدة بحيث يبدو دائماً كأن أحداً فيه ، والصيادون إذ يعودون من الجبال يمدون خطوهم هاهنا ويصعدون في الربى ليتمكنوا من الرؤية البعيدة ، ويقال إن قاطع الطريق «باراليس» الذي يعيش في تلك البقعة يقضي ليله هناك . . . الصخرة الحمراء تلقاء المشرق ، وفي أعلى ربما تراءت عنزٌ ضالة حيال قمر الغروب الأصفر ، وفي المرج غدير لا يجف إلا في شهر أغسطس ، يأخذ قطع السماء الصفراء والخضراء والوردية ويكاد يكون أعمى عن الأحجار التي يلقيها الصبية من أعلى على الضفادع أو لكي يثيروا الماء في دوامة صاخبة .

.. تذكرت بلاتيرو وأنا عائد في الطريق بجانب شجرة الخروب التي تسد مدخل المرج وهي سوداء كلها من خناجرها الجافة ، وأخذت ، وقد ضاعفت فمي بيدي ، أصبح على الصخرة : بلاتيرو .
 قالت الصخرة في رد جاف حلته قليلاً عدوى الحياة القريبة : بلاتيرو .
 وعاد بلاتيرو على عجل وقد رفع رأسه وشدها ثم انبعث كله بحركة من يريد أن ينزع نفسه .

وصحت من جديد نحو الصخرة : بلاتيرو .

فقلت الصخرة مرة أخرى : بلاتيرو .

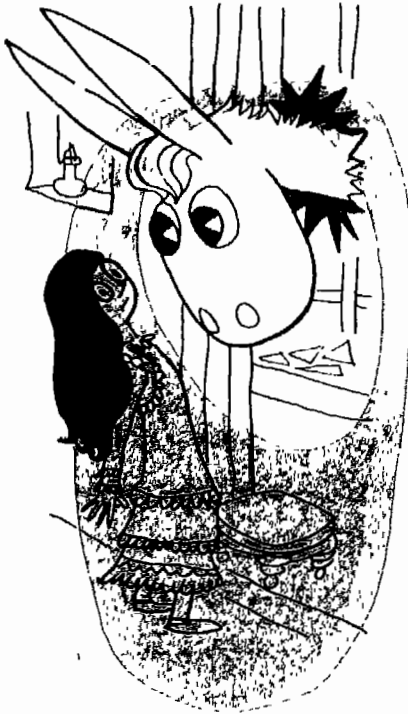
نظر إليّ بلاتيرو ، نظر إلى الصخرة ، ورفع شفته وراح ينهق نهيقاً لا ينتهي حيال السماء .

فنهقت الصخرة نهيقاً طويلاً مبهماً معه موازياً لنهيقه وأطول منه آخر الأمر .

وعاد بلاتيرو إلى النهيق .

وعادت الصخرة إلى النهيق .

عندئذ كف بلاتيرو عن النهيق كما ينتهي يوم سيئ في جلبة خشنة عنيدة ، وأخذ يدور بجبهته أو في الأرض ، وهو يريد أن يقطع اللجام ويهرب ويتركني وحدي حتى رحت أهدئ نفسي بكلمات عذبة ، وأخذ نهيقه شيئاً فشيئاً يبقى وحده في نهيقه بين أشجار التين الشوكي .



كان ذلك طعام
الأطفال ؛ والمصباح بضوئه
الوردي الفاتر يحلُم فوق غطاء
المائدة الجليدي ، وأبر الراعي
الحمرء والتفاحات المرسومة
تلوّن ببهجة شديدة خشنة
ذلك الصمتَ الشعري للوجوه
البريئة ؛ الطفلات يأكلن
كالنساء ، والأطفال يتجادلون
كجماعة من الرجال ، وفي
نهاية الغرفة جلست الأم
وهي شقراء حسناء تنظر
إليهم وهي تبتسم وقد أعطت
الطفل الرضيع ثديها ؛ ومن

نافذة الحديقة ترتجف ليلة النجوم الصافية قاسيةً باردة .

وبينما هم كذلك إذا «ببلانكا» تهرب كشعاع ضعيف إلى ذراعي
أُمها ، ثم حدث صمت مفاجئ ، وفي جلبّة الكراسي الواقعة راح الأطفال
جميعاً يعدّون خلفها في ضوضاء سريعة وهم ينظرون في فرع إلى النافذة .

يا لبلاهة بلاتيرو . لقد وضع في الزجاج رأسه الأبيض وقد تضخّم من
أثر الظل والزجاج والخوف ، وأخذ يتأمل وهو هادئ حزين غرفة الطعام الحلوة
المتقّدة .

الينبوع القديم

أبيضُ دائماً على شجرة الصنوبر الخضراء دائماً ، ورديُّ أو أزرق وهو أبيض في الفجر ، ذهبي أو بنفسجي وهو أبيض ، أخضر أو سماوي وهو أبيض ، في الليل ؛ الينبوع القديم يا بلاتيرو الذي طالما رأيتني أمكث عنده طويلاً ، يضم في ذاته ، كمفتاح أو قبر ، كلّ رثاء في العالم ، أعني الإحساس بالحياة الحقّة .

رأيت فيه البارتنون* والأهرامات والكاتدرائيات جميعاً ، وكلما أيقظني ينبوع أو مزار أو بوابة بالدوام المستمر لجمالها تعاقبت في منامي صورتها وصورة الينبوع القديم .

منه ذهبتُ إلى كل شيء ، ومن كل شيء تحولتُ إليه ؛ مستقر في مكانه ، يخلّده اتساق سهل ؛ الضوء والنور له كلاهما لا ينقص منهما شيء بحيث يكاد يؤخذ منه في اليد كمائه ، التراث الكامل للحياة ؛ رسمه بوكلين على «اليونان» ، وترجمه فراي لويس** ، وأغرقه بتهوفن ببكاء فرح ، ووهبه ميغيل أنجيل*** لرودان .

(*) معبد أثينا الشهير - (ل-ع)

(**) فراي لويس دي ليون شاعر إسباني جمع في شعره بين العاصر المسيحية وعناصر النهضة (١٥٢٧-١٥٩١) - (ل-ع) .

(***) ميغيل أنجيل رسام ونحات وشاعر إيطالي وهو في رسمه بلغ الذروة (١٤٧٥-١٥٦٤) - (ل-ع) .

هو المهد والعرس ، هو الأغنية والقصيدة ، هو الحقيقة والبهجة ، هو الموت .

ترقد ها هنا ميتةً يا بلاتيرو تلك الليلة كأنها لحم من مرمر بين الظلام وبين الخضرة ذات الجلبة ، ميتة ينبع معها من رُوحِي ماءُ خلودي .

يا للأوراق التي تساقطت الليلة الماضية يا بلاتيرو . كأن الأشجار
انقلبت ، فتاجها في الأرض ، وفي السماء جذورها تتطلع إلى أن تنبت
فيها .

انظر إلى شجرة الحور هذه ، كأنها «لوثيًا» الفتاة المرتعدة في السرك وهي
تسكب شعرها الناري على البساط وقد رفعت ساقها الدقيقتين الجميلتين
وجمعت بينهما فتستطيل الحلقة الرمادية .

والآن يا بلاتيرو ، من عُرِي الغصون قد تنظر إلينا الطيورُ بين الأوراق
الذهبية كما ننظر إليها نحن بين الأوراق الخضراء في الربيع ؛ والأغنية
الرقيقة التي غنتها الأوراق في أعلى ، إلى أي صلاة جافة مستطيلة قد
استحالت في أسفل ! هل ترى الريف يا بلاتيرو وكله مليء بأوراق جافة؟
حين نعود هاهنا يوم الأحد المقبل لن نرى واحدةً منها ، لا أدري أين تموت ،
لا بد أن الطيور في حبها للربيع قد خبّرتها بسر ذلك الموت الجميل الخفي
الذي لا أناله أنا ولا أنت يا بلاتيرو . . .

الصنوبر

ها هي ذي تأتي في شمس الشارع «الجديد» الصبية التي تباع
 الصنوبر ، تأتي به فجأً محمّصاً ؛ سأشتري لي ولك بدرهم منها يا بلاتيرو .
 نوفمبر يجمع بين الشتاء والصيف في أيام ذهبية زرقاء ، الشمس تلسع
 والأوردة تنتفخ كأنها مصاصة الدماء من الديدان المستديرة الزرقاء ؛ وفي
 الشوارع البيضاء الهادئة يمر بائعُ القماش القادم من «لامانشا» بحمله الرمادي
 على كتفه ، وبائع «الخردة» محملاً بلون أصفر ولأدواته صليل يلتقط
 الشمس في كل صوت . . . وطفلة «أرينا» لاصقةً بالجدار ترسم بالفحم خطأً
 طويلاً على الجير ببطء ، متماسكة معها سلتها ، وتنادي نداءً طويلاً معبراً :
 الصنوبر المحمّص . . .

يأكله العرسان معاً على الأبواب ، وهم يتبادلون المنتقى من اللباب بين
 ضحكات اللهب ؛ والأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة يشطرونه على
 الأعتاب بحجر . . . أذكر أننا ، في سن الطفولة كنا نذهب إلى أشجار
 البرتقال في «ماريانو» و«لوس أريوس» في أمسيات الصيف ، وكنا نحمل
 معنا مندبلاً فيه صنوبر محمّص ، وكان أُملي أن يكون معي سكين نشطه
 بها ، سكين تنتهي بعرق لؤاؤ ، مصنوعة على شكل سمكة ، عيناها من

الياقوت يتراءى من خلالها برجُ إيفيل* . . .

ما أَلذَّ الطعمَ الذي يتركه في الفم الصنوبر المحمص يا بلاتيرو ، يهب
قوة وتفاؤلاً ، يحس المرءُ معه باليقين في شمس الفصل البارد ، كأنه قد صار
أثراً خالداً ، ويمشي بجلبلة ، ويحمل ثياب الشتاء دون أن تثقله ، بل قد
يجاري المرءُ «ليون» يا بلاتيرو أو «المانكيتو» غلامَ العربات . . .

(*) الراح المشهور الذي بناه المهندس الفرنسي حوستاف إيفيل في باريس سنة ١٨٨٩ (ل-ع)

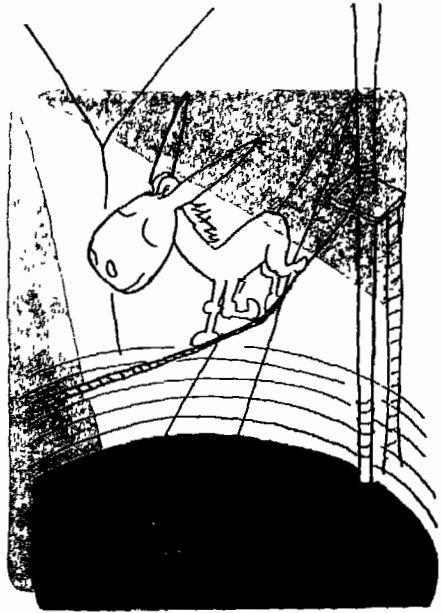
الثور العابر

حين وصلت مع بلاتيرو إلى حيث أشجار البرتقال كان الظل في الوادي الضيق الذي كأنه المنحنى الأبيض في منبت مخلب الأسد بغشاه الصقيع ، والشمس لما تهب الذهب للسماء اللامعة التي لا لون لها والتي يرسم فوقها تل أشجار السنديان أرق أزهاره وأوراقه . . . من حين لآخر ترفع عيني جلبة لعينة عريضة مستطيلة ، إنها الزراير تطير إلى أشجار الزيتون في أسراب طويلة وهي تغير صوتها في تشكيلات مثالية .

أصفق . . . الصدى . . . «مانويل» . . . لا أحد . . . وإذا بجلبة كبيرة مستديرة . . . القلب يخفق بإحساس في حجمه كله ، أختفي مع بلاتيرو في شجرة تين عتيقة . . . بلى ها هو ذا يمضي . ثور ملون يمضي سيداً للصباح ، يستروح ويخور ، ويحطم على هواه ، كل ما يلقاه ؛ يقف لحظة في التل ويملا الوادي في السماء بتأسف قصير رهيب ، والزراير تواصل من غير خوف سيرها فوق السماء الوردية بجلبة يخنقها خفقان قلبي . وفي غبار كثيف تمسه الشمس الطالعة بنحاس أصفر يهبط الثور بين الصبار إلى البئر ويشرب قليلاً ثم يمضي إلى الجبل متكبراً ، فارساً ، أكبر من الريف ، في أعلى الطريق ، وقرناه قد تعلقت بهما أسلاب الكروم ، ويضيع آخر الأمر بين العيون المتطلعة والفجر المتألق ، وقد صار من ذهب مصفى

قصيدة نوفمبر

في الغروب حين يعود
 بلا تيرو من الحقل بحمله
 القضي من أغصان الصنوبر
 للفرن يكاد يختفي تحت
 الخضرة المتسعة المستسلمة ؛
 خطوه دقيق متحد كأنه خطو
 أنسة السرك على السلك
 الدقيق اللاعب ... كأنه لا
 يمشي ، وأذناه مديبتان حتى
 ليمن أن يقال إنه حلزون في
 بيته ، والأغصان الخصرء ،
 وهي أغصان ناهضة ، كأن



فيها الشمس والصفاري والريح والقمر والغربان -يا للفرع! ها هنا .

كانت يا بلا تيرو! -تساقط هذه الأغصان مسكينة على التراب
 الأبيض في طرق الشفق الجافة .

عذوبة باردة سخية تكللها جميعاً ، وفي الريف الذي يمتد إلى ديسمبر
 تأخذ الرطوبة الرقيقة للحمار المحمل بالثقل ، كما كانت في العام الماضي ،
 في الظهور بصورة إلهية ...

الفرسة البيضاء

أجبيء حزينا يا بلاتيرو . . . انظر ؛ بينا أنا أمر في شارع «لاس فلوريس» هنالك في «لابورتادا» في نفس المكان الذي قتل فيه الشعاع طفلين توأمين ، رأيت فرسة «الأصم»* البيضاء ميتة ، يحيط بها أطفال يكادون يكونون عرايا وهم صامتون .

«بوريتا» الخيطة التي كانت تمر هناك قالت لي إن «الأصم» قد حمل الفرسة هذا الصباح إلى حيث تقتل وقد ضاق ذرعاً بطعامها ، أنت تعلم أن المسكينة كانت في مثل كهولة «دون خوليان» وكانت كثيرة التخبط ، لا ترى ولا تسمع ولا تكاد تمشي . . . وقريباً من الظهر كانت الفرسة مرة أخرى عند باب سيدها فما كان منه وقد استولى عليه الغضب إلا أن أخذ وتداً ورام طردها بالضرب ولكنها لم تذهب ، عندئذ شكها بمنجل فاجتمع الناس ، وبين اللعنات والنكات خرجت الفرسة مصعدة في الشارع وهي تعرج وتتعثر ، فلاحقها الصبية بالأحجار والصيحات . . . وأخيراً سقطت على الأرض وهناك أجهزوا عليها . . . وإذا بإحساس رحيم يرفرف عليها : «دعوها تُمُتْ في سلام» كما لو كنا أنا وأنت هناك يا بلاتيرو ولكن كان الإحساس كالفراشة في وسط ريح عاصفة .

وحين رأيتهما كانت الأحجار ترقد بجانبها ، وهي باردة مثلها ؛ كانت

إحدى عينيها مفتوحة كلها ، ولكنها وقد كانت عمياء في حياتها فهي الآن
وقد صارت ميتة كأنها ترى ، وكان بياضُها منل ما يتبقى من ضوء في
الشارع المظلم الذي تتراءى فوقه سماء الغروب وهي عالية مع البرد وقد
تغشَّتْها كلها سحب وردية خفيفة . . .

حقاً يا بلاتيرو إنهم متعة ، كانت دنيا «كاميلا» في ثيابها البيضاء الوردية تعطي درساً باللافتة المكتوبة وبالقصيب لبهيمه تُقدّم قرباناً «لسان أنطون» وهو ، أي «ساتاناس» ، يمك بإحدى يديه زقاً فارغاً من السلاف ، ويستخرج بالأخرى من جيبه لها صرة من النقود ، أظن أن الأشكال اصطنعها بيبي «الفرخ» وكونشا «الخادمة» التي حملت ما لا أدريه من خلق الثياب في منزلي ، وكان يتقدمها بيبسو «المصور» في ثياب قسيس على حمار أسود وفي يده راية ، وخلفهم سائر أطفال شارع «أنيدو» وشارع «لافويثتي» وشارع «لاكاريتيرا» وميدان «لوس اسكريبانوس» وزقاق العم «بدروتيليو» وهم يدقون على الصفيح والجلجل والمقالي والمهاريس والدسوت باتساق متناغم في قمر الشوارع الممتلئ .

وأنت تعلم أن دنيا «كاميلا» ترملت ثلاث مرات وأنها في الستين من عمرها ، وأن «ساتاناس» وهو مترمل أيضاً وإن كان مرة واحدة ، كان لديه من الوقت ما يستهلك فيه سلافة ستين قطفة . ما أطرف أن يسمعه المرء في هذه الليلة خلف زجاج الدار المغلقة وهو يرى ويسمع تاريخه وتاريخ زوجته الجديدة في الصورة وفي الشعر الشعبي .

ثلاثة أيام يا بلاتيرو ستستمر فيها هذه الجلبة ، وبعدئذ ستحمل كل جارة ما لها ، من صليب الميدان الذي يرقص تلقاءه السكارى عند الصور المضئية ثم يستمر صخبُ الصبية ليالٍ أخرى على نحو أشد ، وأخيراً لن يتبقى إلا القمرُ الممتلئ والشعر الشعبي .

انظر إليها يا بلاتيرو . ها هي تأتي أسفل الشارع في شمس النحاس
مستقيمة ناهضة ، دون معطف ، لا تنظر إلى أحد . . ما أحسن ما يحمل
جمالها الماضي ولا يزال فتياً قوياً ، المنديل الأصفر تشد به وسطها في الشتاء
والفستان الأزرق المزركش وعليه بقع ببضاء . . إنها تذهب إلى البلدية تطلب
الإذن لها بأن تخيم ، كما هو الشأن دائماً ، خلف المقبرة ، أنت تذكر خيام
العجر القدرة بنيرانهم ونسائهم الحسان وحميرهم المحتضرة تعض الموت من
حولهم .

يا للحمير يا بلاتيرو . . لعل حمير «لافريسيتا» ترتعد فرقاً وهي تحس
بالعجر من الأفنية السفلى (أنا مطمئن على بلاتيرو لأن العجر لكي يصلوا
إلى مكانه لا بد لهم من أن يتخطوا نصف قرية ولأن «رنجيل» الحارس
يحبني ويحبه) ولكن لكي أخيفه على سبيل الدعابة أقول له وأنا أظهر
الغضب والحنق في صوتي :

- في الداخل يا بلاتيرو ، في الداخل . . سأقفل الشباك حتى لا
يأخذوك . .

وبلاتيرو وهو على يقين من أنه لن يسرقه العجر يمر راكضاً بالنافذة التي
تُغلق خلفه بجلبة شديدة من الحديد والزجاج ، ويثب ويقفز من بهو الممر
إلى بهو الأزهار ومن هذا إلى الفناء كأنه سهم يقطع -يا للتخبط . .- في
هربه القصير ، الزرقة المتشابكة .

١١١ الذهب

ادنْ مني أكثر يا بلاتيرو . هلمّ . . . ها هنا لا داعي للتحفظ ، صاحب البيت يحس بالسعادة وأنت بجانبه لأنه من أصحابك ، «وعلي» كلبه تعلم أنه يحبك ، وأنا أقول لك شيئاً يا بلاتيرو . . . ما أشد البرد عند أشجار البرتقال . . . ها أنت تسمع «رابوسو» : أرجو الله ألا يحترق كثير من البرتقال في هذه الليلة .

ألا تروقك النار يا بلاتيرو؟ لا أعتقد أن امرأة ما تستطيع أن تقارن جسدها العاري بالذهب . أيّ شعْر طليق وأي أذرع وأي سيقان تقوى على مقارنتها بتلك النيران العارية؟ لعل الطبيعة لا تتبدى في شيء أحسن من النار؛ الدار مغلقة والليلة في الخارج وحدها ومع ذلك فكلما قربنا من الريف يا بلاتيرو قربنا من الطبيعة في هذه النافذة المفتوحة على الغار الضوئي . . النار هي العالم في الدار ، ملونة لا تنتهي كدم جرح في الجسم ، تدفئنا وتعطينا قوة مع ذكريات الأهل ، يا بلاتيرو ما أجمل النار . . انظر كيف يتأملها «علي» وهو يحترق فيها بعينيه المفتوحتين المليئتين بالحياة . يا للفرح . . تلقنا رقصات من الذهب ورقصات من الظلال ، الدار كلها ترقص وتصفّر وتكبر في لعب سهل كلعب الروس ورقصهم ، تنبعث منها جميع الصور في متعة لا حد لها : أغصان وأطيار ، الأسد والماء ، الجبل والوردة ، انظر نحن أنفسنا نرقص في الجدار والأرض والسقف دون أن نريد .
يا للجنون وبالنشوة وباللمجد . . الحب نفسه كأنه ميت ها هنا يا بلاتيرو .

من الإضاءة الضعيفة الصفراء لغرفتي التي أقضي فيها دور النقاہة وهي غضة لينة من البسط والسجاجيد أسمع من الشارع الليلي ، كأني في حلم مرطب بالنجوم ، مروراً حمراً خفيفة تعود من الحقل ، وأطفال يلعبون ويصيحون .

يتوهم المرء رؤوساً مظلمة لحمير ورؤوساً دقيقة لأطفال يغنون بين النهيق أناشيد عيد الميلاد ببلّور وفضة ، القرية تحس كأنها قد لُفّت في دخان كستناء محمص وفي دخان الزرائب وفي نسمة منازل تغمرها السكينة . .
 وروحي تنسكب مطهرة كأن سيلاً من المياه السماوية يتدفق بها من الصخرة التي في ظل القلب . يا لغروب العتق والتحرر . . يا للساعة الخالصة الباردة الفاترة في آن واحد ، المليئة بأضواء لا نهائية .
 الأجراس في أعلى وفي الخارج تدق بين النجوم ، وبلا تيرو وقد شمله ما شمل غيره ينهق في زربته التي كأنها بعيدة جداً في هذه اللحظة من السماء وأنا أبكي ضعيفاً متأثراً منفرداً كفاوست .

الجمار العجوز

... وأخيراً يمشي بإعياء شديد .

حتى ليفضل في كل خطوة ...

(المهر الأشهب للقائد من آل فيليث)

من الشعر الشعبي

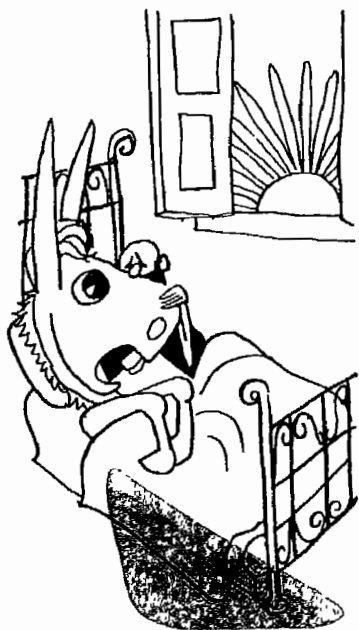
لا أدري كيف أنصرف من هنا يا بلاتيرو . من يترك البائس هنا دون مرشد ودون ملاذ؟

كان ينبغي له أن يخرج إلى مذبح البهائم ، أظن أنه لا يسمعنا ولا يرانا ، رأيت هذا الصباح في نفس السياج وقد استضاء حزنه الجاف البائس تحت السحب البيضاء التي يملؤها الذباب بجزر حية في الشمس المشعة ، وهو غريب عن الجمال المعجز في يوم الشتاء ، دارَ ببطء كأنه لا اتجاه له ، تعرج أرجله كلها وعاد مرة أخرى إلى نفس المكان ، فلم يفعل أكثر من تغيير جانب فقط ، وفي هذا الصباح كان ينظر إلى المغرب والآن ينظر إلى المشرق .
يا لغل الشيخوخة يا بلاتيرو! ها هو ذا صديقك البائس طليق لا وجهة له! وإن كان الربيع يقبل نحوه . أم أنه ميت مثل «بيكر»* ولا يزال قائماً مع ذلك؟ في استطاعة طفل أن يرسم محيطه الثابت فوق سماء الغروب .

ها أنت تراه . . . أردتُه أن يندفع لا أن يبتزع نفسه . . .

لا يلتفت إلى الدعاء والنداء . . . كأن حشرجة الموت قد زرعت في الأرض يا بلاتيرو ، سيموت من البرد في هذا السياج العالي ، في هذه الليلة التي مرت بها ربح الشمال . . .

لا أدري كيف أنصرف من هنا . . . ولا ماذا أفعل يا بلاتيرو . . .



في الأسحار البطيئة للشتاء إذ
تري الديكة اليقظة الورود الأولى
للفجر وتحийها بأناقة ، ينطلق
بلا تيرو ، وقد تعب من النوم ، في
نهيق طويل . ما أعذب صحوه البعيد
في الضوء السماوي الذي يدخل من
شقوق الغرفة . . وأنا أيضاً إذ أرغب
في النهار أفكر في الشمس من
فراشي اللين .

وأفكر فيما قد كان يكون من
أمر بلا تيرو المسكين لو أنه بدلاً من
أن يقع في يدي شاعر وقع في يدي
واحد من هولاء الفحامين الذين
يمضون ليلاً في الصقيع القاسي
للطرق المنعزلة ليسرقوا صنوبر

الجال ، أو يدي واحد من أولئك الغجر القذرين الذين يرسمون على الحمير
ويعطونها سم الفأر ويضعون في آذانها الدبابيس حتى لا تسقط .

بلا تيرو ينهق مرة أخرى . هل يعلم أنني أفكر فيه؟ ماذا يعنيني؟ في رقة
الشروق تذكره يروقني كالفجر ذاته ، وله ولله الحمد زريبة ناعمة لينة كأنها
مهد ، محبوبة كأنها تفكير .

إلى أمي .

قالت أمي إنه لما ماتت الأم «تيريزا» احتضرتُ وهي تهذي بالأزهار ، لا أدري يا بلاتيرو بأي ترابط مع النجوم ذات الألوان التي من لون حلمي حينذاك وأنا طفلٌ صغير يُخطر لي كلما تذكرت ذلك أن أزهار هذيانها كانت أزهار رعي الحمام الوردية الزرقاء البنفسجية .

لا أرى الأم تيريزا إلا من خلال البلّور الملون لشباك البهو الذي أنظر منه في الزرقة أو الحمرة إلى الشمس والقمر وهو يميل من غير كلال على الهضاب السماوية أو على العُروش البيضاء ، والصورة تدوم دون أن أدير وجهي -لأنني لا أذكر كيف كانت- تحت شمس العصر في شهر أغسطس أو تحت العواصف المطيرة في شهر سبتمبر .

وكانت في هذيانها على ما تقول أمي تنادي ما لا أدري من بستاني لا تدركه الأبصار يا بلاتيرو . مهما كان من أمر فقد كان لا بد من حملها بعذوبة في طريق من الأزهار ورعي الحمام ، ومن هذا الطريق تتحول في ذاكرتي إليّ بحيث أبقّيها على هواها في إحساسي العزيز رغم بعده عن قلبي كأنها بين تلك الطرق الرقيقة التي كانت تجتازها ، وكلها نابتة بالزهيرات أخوات أزهار عباد الشمس الساقطة من البستان والأضواء الهاربة لليليّ وأنا طفل .

عيد الميلاد

يا للشمعة في الريف . . . ! إنه مساء ليلة عيد الميلاد ، ولا تكاد الشمس الكثيفة الضعيفة تضيء في السماء الفجة التي لا سحب فيها وكلها رمادية بدلاً من أن تكون زرقاء مع صفرة لا تنتهي في أفق الغروب . . وفجأة تثب طقطقة حادة لغصون خضراء تأخذ في الاتقاد ، ثم الدخان المشدود الأبيض كالسمور الأبيض وأخيراً اللهب الذي ينقي الدخان ويملاً الهواء بالسنّة صافية موقوتة كأنها تلعه .

يا للهب في الريح! أرواح وردية وصفراء وزرقاء تضل حيث لا أدري وهي تثقب السماء السرية السفلى ، وتدع في البرد رائحة جذوة متقدة! يا للريف الهادئ الآن في شهر ديسمبر! يا للشتاء مع الحنان! ويا لليلة عيد الميلاد للسعداء!

أزهار الشعر المجاورة تتبعثر ، والمنظر من خلال الهواء الحار يرتجف ويتطهر كما لو كان من بلّور دائر ، وأطفال صاحب الدار الذين ليس لديهم صور الميلاد يحومون حول الشمعة وهم يؤساء في حزن ليدفثوا أيديهم المرتعدة من البرد ، ويلقوا في النار البلوط والكستناء فينفجر وله طلقات .
وبيتتهجون بعد ذلك ويشبون على النار التي يصبغها الليل بالحمرة ويغنون :

اتخذني طريقك يا مريم

اتخذ طريقك يا يوسف

وأحضر لهم بلاتيرو وأعتليهم إياه ليعبثوا به .

شارع لايبا

ها هنا في هذا المنزل الكبير الذي هو الآن مركز للشرطة ولدتُ أنا يا بلاتيرو ، ما أشد ما كان يروقني وأنا طفل وما أجمل ما كانت تبدو لي هذه الشرفة الفقيرة وهي من طراز مدجن في أسلوب المايسترو «جارفيا» بنجومها البلورية ذات الألوان! انظر إلى النافذة يا بلاتيرو ، لازالت تزينها الزنبرات البيضاء والبنفسجية ، والكؤوس الزرقاء المعلقة بالشبكة الخشبية التي اسودت بمرور الوقت وكانت متعة لي في عمري الأول .

يا بلاتيرو في هذا الزقاق بشارع «لاس فلوريس» يخرج الملاحون في الأمسيات بشياهم المرقعة ذات اللون الأزرق بدرجات متفاوتة كأنهم يخرجون إلى ريف شهر أكتوبر ، وإني لأذكر أنهم كانوا يبدون لي ضخاماً بحيث كنت أرى هنالك بين أرجلهم بحكم ما تعودوه في البحر النهر بقطعه المتوازية من الماء والأرض ، هذه جافة صفراء وتلك لامعة ، مع قارب بطيء في الذراع الآخر للنهر يمتع البصر ، والشيات العنيفة الملونة في سماء الغروب . . . وبعد ذلك انتقل أبي إلى الشارع الجديد لأن الملاحين درجوا على أن يسيروا وفي أيديهم أسلحة حادة ولأن الصبية كانوا يكسرون في الليل المصباح الذي في مدخل البيت والجرس ، ثم لأن الريح كانت شديدة جداً في الزقاق . . .

من الشرفة يتراءى البحر ، ولن تمنحي من ذاكرتي قط تلك الليلة التي صعدوا فيها بالأطفال جميعاً وهم يرتجفون ويتطلعون لرؤية ذلك القارب الإنجليزي الذي كان يشتعل في «لابارا» .

الله في قصره المرمرى ، أريد أن أقول إن السماء تمطر يا بلاتيرو ، تمطر ،
والأزهار الأخيرة التي تركها الخريف معلقة في غصونها الذابلة تنوء بالماس ،
وفي كل ماسة سماء وقصر بلّوري وإله ، انظر إلى هذه الوردة ، في داخلها
وردة أخرى من الماء ، وإذا هزها المرء - ألا ترى؟- تسقط منها الزهرة الجديدة
اللامعة كأنها روحها وتبقى مبللة حزينة كروحي .

الماء لا بد أن يكون فرحاً كالشمس ، انظر إليه إن لم تصدق ، كأنما
يجري تحته الأطفال وهم أشداء يموجون بالألوان وأرجلهم في الهواء .

انظر كيف تدخل العصافير كلها وهي جماعة صاحبة مفاجئة في
البلاب أو المدرسة يا بلاتيرو كما يقول طبيبك «داربون» .

السماء تمطر ، ولا نذهب اليوم إلى الحقل ، فهو يوم تأملات ، انظر كيف
تجري قنوات الأسطح ، انظر كيف تصفو أشجار الطلح وهي سوداء لكنها لا
تزال مذهبة قليلاً ، كيف يعود إلى الملاحه في المجرى الصغير قارب الأطفال
وقد توقف أمس بين الأعشاب ، وانظر الساعة إلى هذه الشمس الموقوتة
الضعيفة ، ما أجمل قوس قزح وهو يخرج من الكنيسة ويموت بجانبنا في
إضاءة الغامضة .

الناس يسرعون في المشي ويسعلون في الصمت الذي يسود صباح ديسمبر ، والريح تنقل دقات الناقوس الذي يدعو للصلاة إلى الجانب الآخر من القرية ، وتمضي عربة الساعة السابعة فارغة . . . توقظني مرة أخرى جلبة مرتجفة لحديد النافذة . . . ترى هل ربط الأعمى فيها مرة أخرى أتانته كما يحدث في كل عام .

بائعات اللبن يغدون ويرحن بأباريقهن المصنوعة من الصفيح وقد علقنها على بطونهن ينادين على كنزهن الأبيض في البرد ، هذا اللبن الذي يخرج الأعمى من أتانته إنما هو للذين يشكون من السعال .

لا شك أن الأعمى باعتباره أعمى لا يرى الخراب الذي يلحق ، إن كان من الممكن ، بأتانته في كل يوم وفي كل ساعة ، كأنما هي كلها عين عمياء لصاحبها . . . ذات مساء مضيتُ أنا وبلاتيرو إلى مسيل «لاس انيماس» ورأيت الأعمى يضرب بعصاه يميناً وشمالاً خلف الأتان المسكينة التي كانت تعدو في المروج وتكاد تكون جالسة في العشب المبتل ، وكانت الضربات تقع على شجرة البرتقال أو على الناعورة أو في الهواء ، وهي أضعف من الأيمان التي لِغَلَطِهَا من شأنها أن تهوي ببرج الحصن . . . والأتان المسكينة لا تريد أن تحمل مرة أخرى ، وجعلت تتقي القدر بأن

تصب في الأرض العقيم - كما كان يفعل أونان* - الهبة التي يهبها إياها
حمار سفيه . . . والأعمى الذي يحيا حياته المظلمة وهو يبيع للشيوخ لقاء
فلس أو لقاء وعد إصبعين من رحيق الحُمُر كان يريد أن تحتفظ الأتان وهي
قائمة بالهبة الخصبة ، مصدر دوائه الحلو .

وها هي ذي الأتان تحكّ بؤسها في حديد النافذة ، تلك الصيدلية
البائسة لشتاء آخر ، صيدلية الشيوخ المدخنين والسكرارى والذين يشكون
السعال .

(*) يشير الشاعر إلى قصة أونان التي ورد ذكرها في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين . وكان يهوذا قد قال له
« ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلًا لأخيك » ، فعلم أونان أن النسل لا يكون له ، فكان إذا دخل على
امرأة أخيه أنه الفسد على الأرض لكيلا يعطي لأخيه نسلًا فقبح في عيني الرب ما فعله فأماته أيضاً » (ج-ع) .

ليلة صافية



الأسطح المزخرفة
بالشرفات تتخلل السماء
الزرقاء الفرحة ذات
الجليد والنجوم ، وريح
الشمال الصامتة تدلّل
الكون الحيّ بحدتها
الصافية .

الخلق جميعاً
يعتقدون أن البرد
يشملهم فيختفون في
البيوت ويغلقونها ، أما
نحن يا بلاتيرو فهيا بنا
نمضي على مهل ، أنت

بصوفك وغطائي وأنا بروحي في القرية النقية المنفردة .

يا لها من قوة داخلية ترفعني كما لو كنت برجاً من حجر غليظ ينتهي
بفضة صافية! انظر ما أكثر النجوم! إنها لكثرتها تصيب من يراها بدوار ، كأن
السماء عالم من الأطفال يصلي للأرض صلاة حارة من حب مثالي .

يا بلاتيرو يا بلاتيرو: وددتُ لو أهب كل حباتي وأطمع في أن تهبَ
حياتك من أجل نقاء هذه الليلة العالية من ليالي يناير، الليلة الوحيدة
الصفاء القاسية!

تألم البقون

ترى من يسبق؟

كانت الجائزة كتاب رسوم تلقيته من فينا .

ترى من يسبق إلى أزهار البنفسج؟ ...

واحد ... اثنان ... ثلاثة!

انطلقت الصبايا يجرين في جلبة فرحة بيضاء وردية تلقاء الشمس الصافية ، وما هي إلا لحظة حتى سمعت في الصمت الذي جعل يفتحه الجهد الأصم لصدورهن الدقات البطيئة للساعة التي في برج القرية والطين الدقيق لذبابه في تل أشجار الصنوبر الذي يغمره السوسن الأزرق ، ومجيء الماء إلى الجدول ... وصلن أولاً إلى شجرة البرتقال وقت أن أصابت بلاتيرو الذي كان يسترخي هناك عدوى اللعب منهن ، فانضم إليهن في عدوه الحي ؛ على أنهن خشية أن يتأخرن لم يرفعن صوتاً بالاحتجاج بل لم يضحكن ... وجعلتُ أصيح : الرابع بلاتيرو! الرابع بلاتيرو .

نعم لقد سبقهن بلاتيرو إلى البنفسجات وظل هناك يتقلب في الرمل ... ورجعن وقد علا صوتهن بالاحتجاج وهن مكدورات ، يرفعن جواربهن ويجمعن شعرهن ويقلن : هذا لا يعتد به! هذا لا يعتد به! كلا! كلا كلا! ، هيا!

قلت لهن إن هذا السباق ربحه بلاتيرو ، ومن الإنصاف أن ينال جائزة على أي وجه ؛ ويحسنُ وبلاتيرو لا يقرأ أن يظل الكتاب لسباق آخر يقمن

به ، ولكن ينبغي أن يُعطى بلاتيرو جائزة .

فأخذن وهن على يقين من الكتاب يثبن ويضحكن وقد علت وجوههن
الحمرة وقلن :

بلى! بلى! بلى!

عندئذ ذكرت نفسي وخطر لي أن خير جائزة لبلاتيرو إنما هي في
جهده ، كما أن خير جائزة لي إنما هي في أشعاري ، ثم عمدت إلى قليل من
البقدونس أخذتها من الصندوق الذي على باب ربة الدار وصنعتُ منه تاجاً
وضعته على رأسه تكريماً له قصيراً في أقصى درجاته ، كتكريم واحد من
أبناء إسبرطة .

يا لها من أمنية تلك التي عند الأطفال يا بلاتيرو ، لم يكن من المستطاع تنويمهم وأخيراً غلبهم النوم ، أحدهم في كرسي والثاني على الأرض قرب المدخنة ، «وبلانكا» في مقعد واطئ ، «وبيبي» في قاعدة النافذة ورأسه على مقابض الباب ، ولم ير الملوك . . . والآن في نهاية هذه اللوحة الخارجية للحياة يحس المرء كأن نومهم جميعاً ، وهو حي وسحري ، قلب كبير مليء وسليم .

قبل العشاء صعدت معهم جميعاً ، يا لها من جلبة ، على الدرج الذي يخشونه في ليال أخرى ، قالت «بلانكا» وقد أخذتها بيدي في شدة : «أنا لا أخاف من السطح يا بيبي ، وأنت؟» ووضعنا أحذيتهم جميعاً في الشرفة بين الليمون ، والآن يا بلاتيرو هيا بنا نلبس أنا وأنت «ومونتمايور» «وماريا تريس» «لوليتا وبريكو» ، نلبس الملاءات والأغطية والقبعات القديمة ؛ وعند الساعة الثانية عشرة نمر من أمام نافذة الأطفال في موكب من الثياب التنكرية والأضواء ، ونحن ندق المهاريس والطبول وننفخ في البوق الذي في الغرفة الأخيرة ، على أن تتقدم معي وسأكون أنا «جاسبار» وأحمل لحي بيضاء من ألياف الكتان ، وتتخذ أنت مثزراً من راية كولومبيا التي أحضرتها من منزل عمي القنصل . . . وما أن يستيقظ الأطفال على حين غرة والنوم لا يزال معلقاً بالعيون التي تنظر في دھول حتى يتطلعوا وهم في خلق الثياب إلى الزجاج خائفين يروعهم ما يرون ، وبعد ذلك نظل في منامهم طوال

السحر ، وفي الصباح حين يتأخر الوقت تُعشي أبصارهم السماء الزرقاء من
المنافذ والشقوق فيصعدون دون أن يُتموا لبس ثيابهم إلى السرفة ، وهم
حينئذ أرباب الكنز كله .

في العام الماضي ضحكنا كثيراً ، وسترى مبلغ متعتنا هذه الليلة يا
بلا تيرو ، يا بعيري!

جبل الذهب*

هو اليوم «منتوريو»؛ التلال الحمراء التي تزداد كل يوم بؤساً من حفر الحفارين تبدو حين ينظر المرء إليها من البحر كأنها من ذهب، وعلى هذا الوجه اللامع العالي سماها الرومان كذلك. منه يمضي المرء إلى طاحونة الهواء أسرع مما يمضي في المقبرة، وحيثما نظر المرء رأى أطلالاً، وفي كرومه يستخرج الحفاريون عظاماً ونقوداً وجراراً كبيرة.

... كولون** لا يستهويني كثيراً يا بلاتيرو؛ إذا كان قد توقف في منزلي، وإذا كان قد قدّم القربان في «سانتا كلارا» وإذا كانت هذه النخلة أو تلك المحلة ترجع إلى أيامه... فإنه قريب ولا يوغل في الماضي، وأنت تعلم الهديتين اللتين أتى بهما لنا من أمريكا، أما الذي يروقني أن أحس بهم من تحتي، كأنهم جذر قوي، فهم الرومان الذين صنعوا ملاط الحصن الذي لا يوجد معول ولا مطرقة تحطمه، ولم يكن من المستطاع أن تنفذ فيه دواة الهواء التي على شكل اللقلاق.

لن أنسى قط اليوم الذي عرفتُ فيه وأنا طفل هذا الاسم: مُنس - أريوم، فقد شرفني عند ذلك «المنتريو» وإلى الأبد؛ وحينني في خير صورة، على ما به من حزن في قريتي الفقيرة، وجدّ في ذلك خداعاً لذيذاً. تُرى من الذي أحسده بعد ذلك، أي قَدَم وأي طلل - كاتدرائية كانت أو حصناً -

(*) Mons-Unum

(**) كريستوبل كولون مكتشف العالم الجديد وقد أسحر في ٢ أغسطس سنة ١٤٩٢ من «بالوس» التي ورد ذكرها في الكتاب فهي في إقليم والبّة كما مر مغير قرية الشاعر (ل-ع).

يستطيع أن يُمسك تفكيري الطويل فوق معارب التوهم ؛ لم ألبث أن وجدت نفسي على كنز لا ينفد ، فمُغير جبل الذهب يا بلاتيرو ، تستطيع فيها أن تعيش وأن تموت وأنت مسرور .

قلتُ مرةً يابلاتيرو إن الخبز روح مغير ؛ كلا ، مغير ككوب من زجاج غليظ صاف ينتظر كل عام تحت السماء المستديرة الزرقاء نبيذَه الذهبي ، فما إن يصل سبتمبر إلا إذا أفسد الشيطان العيد ، حتى تمتلئ هذه الكأس إلى نهايتها من النبيذ وتفيض دائماً كأنها قلب كريم .

عندئذ تفوح القرية كلها برائحة النبيذ قلَّ كَرْمُه أو كثر ، ويُسمع فيها الزجاج ، كأن الشمس توهب في جمال سائل لقاء أربعة دراهم ، في سبيل انحباسها في المكان الشفاف للقرية البيضاء ومن أجل مسرة دمها الطيب ؛ كل بيت في كل شارع يشبه زجاجة على رف «خوانيتو ميجيل» أو رف «ريالستا» إذ يمسه الغروب بالشمس .

أذكر «ينبوع التناقل» لترنر* كأنه ملوّن كله في ليمونه الأصفر بنبيذ جديد ، وهكذا مُغير ينبوع نبيذ يأتي ، كالدم ، على كل جرح فيها ، من غير نهاية ؛ نبع لفرح حزين ، كشمس أبريل ، يصعد إلى الربيع كل عام ، ولكنه يهبط كل يوم .

(*) وليام ترنر رسام إنكليزي عرف بتلوينه الصارخ (١٧٧٥-١٨٥١) (ج-ع)

منذ طفولتي أفزع يا بلاتيرو بالعزيزة من الخرافة كما أفزع من الكنيسة ومن الشرطة ومن مصارعي الثيران ومن الأكورديون ، فالبهائم المسكينة ، بحكم كونها تنطق بحماقات على لسان القصّاص ، تبدو لي بغيضةً كما هو شأنها في صمت الحواجز الزجاجية المُنتنة في درس التاريخ الطبيعي ؛ كل كلمة تقولها ، أعني يقولها سيد به سعال ، أجش الصوت ، أصفر ، يخيل إليّ أنها عين من زجاج أو خيط لجناح أو سند لغصن زائف ، ثم لما رأيت الحيوانات المروّضة في شرك والبة وسرك إشبيلية إذا بالخرافة التي كانت قد بقيت كالخطوط والجوائز ، في نسيان المدرسة المتروكة ، قد عادت إلى الانبعاث كأنها كابوس بغيض في صباي .

وصرتُ رجلاً يا بلاتيرو فجاء قصّاص من واضعي الخرافات وهو جان دي لافونتين* الذي سمعته في أحدثك عنه مراراً وتكراراً فجعلني ألف البهائم المتكلمة ، ورُب بيت له من الشعر يبدو لي أنه صوت حقيقي لأبي زريق أو للحمامة أو للعنز ، غير أنني كنت دائماً أترك قراءة الحكمة الأخلاقية ، ذلك الذنب الجاف ، وذلك الرماد ، وتلك الريشة الساقطة في الخاتمة .

ولا يخفى يا بلاتيرو أنك لست حماراً بالملول الشائع للفظ ولا

(*) جان دي لافونتين الشاعر الفرنسي الذي ذاعت أقاصيصه الخرافية (١٦٢١-١٦٩٥) - (د-ع) .

بمقتضى التعريف الوارد في قاموس المجمع الإسباني ، نعم أنت حمار على
الوجه الذي أدركه وأفهمه ، لك لغتك لا لغتي ، كما أنه ليست لي لغة
الوردة ولا لغة البلب ، وعلى هذا فلا تخش من أن أجعلك ، كما قد تظن
وأنا بين كتبي ، بطلاً متكلماً في خرافة تقابل فيها تعبيرك المدوي بتعبير
ثعلبة أو تعبير أبي حسون لأستخرج بعد ذلك في حروف بارزة الحكمة
الأخلاقية الباردة الباطلة من المثل . كلا يا بلاتيرو .

ما أجمل اليوم يا بلاتيروا إنه اثنين الكرنفال ، والأطفال الذين تنكروا برواء في ثياب مصارعي الثيران والمهرجين والمتشدين قد لبسوا ثياباً عربية كلها موشاة بالذهب في ألوان حمراء وخضراء وبيضاء قد أثقلت بالزركشات العربية .

ماء وشمس وبرد . وجذاذات الورق المستديرة الملونة ندور على التوالي بالإفريز في ريح المساء الحادة ، والأقنعة المتجمدة تصنع من كل شيء جيوباً للأيدي الزرقاء .

ولما وصلنا إلى الميدان إذا بنسوة يلبسن ثياب مجنونات عليهن قمصان بيضاء وشعرهن الأسود المرسل متوج بتيجان من أوراق خضراء ، قد أخذن بلاتيرو في وسط حلقتهن الصاخبة ثم أخذن ، وقد التقين بالأيدي ، يدُرْنَ من حوله في بهجة .

وبلاتيرو وهو متردد يرسل أذنيه ويرفع رأسه ويحاول في حدة كأنه عقرب تحيط بها النيران ، الإفلات في أي مكان ؛ لكنه ، وهو صغير جداً ، لا تخافه المجنونات ويواصلان الدوران وهن يغنين ويضحكن حوله ؛ فراح الصبية وقد رأوه أسيراً ينهقون لينهق ، عندئذ استحال الميدان كله إلى حفل موسيقي فخور من معدن أصفر ونهيق وضحكات وأناشيد ودفوف ومهاريس . .

وأخيراً إذا ببلاتيرو ، وقا حزم أمره كأنه رجل ، يقطع الحلقة ويجيء

إليّ راكضاً يبكي وقد سقط عنه إطار الزينة ؛ بلاتيرو مثلي لا شأن له
بالكرنفالات .

لا نصلح لهذه الأشياء . . .

أمضي مع بلاتيرو على مهل إلى جانب الطريق ، وفي كل مقعد من المقاعد التي في ميدان «لاس منخاس» المنفرد الفرحة في هذه الأمسية الحارة من أمسيات شهر فبراير ظهر الغروب المبكر في لون بنفسجي ممزوج بالذهب على المستشفى ، وحينئذ إذا بي أحس بأن إنساناً معنا ، ولما أدّرتُ رأسي التقت عيناى بالكلمات : دون خوان . . .
وصفق ليون . . .

نعم إنه ليون وقد لبس ثيابه وتعطر استعداداً للموسيقى الغروب ، بحقيبتة الصغيرة ذات المربعات وحذائه ذي الرباط الأبيض والجلد الأسود اللامع ومنديله الحريري الأخضر المرسل ، وتحت ذراعه الصنوج البراقة ، يصفق ثم يقول لي «كل إنسان ميسر لما خلق له» ، فإن كنت أنا أكتب في الصحف . . . فهو بحاسة السمع التي له ، قادر على . . . «انظر يا دون خوان إلى الصنوج . . . أصعب الآلات . . . الآلة الوحيدة التي يضرب عليها المرء بدون نوتة موسيقية . . .» ولو أراد أن يضابق «موديستو» بحاسة السمع هذه لصفر القطع الموسيقية الجديدة قبل أن تعزفها الفرقة . «تأمل حضرتك . . لأن كل إنسان ميسر لما خلق له . . حضرتك تكتب في الجرائد . . . في قوة أشد من قوة بلاتيرو . . . ضع يدك هاهنا . . .»

ثم إذا به يريني رأسه العجوز العاري من الشعر ، وفي وسطه الذي يشبه شماعة عتيقة وجافة . كأنه هضبة قشتالة شئن كبير ، يدل دلالة

واضحة على حرفته القاسية .

يصفق ويشب ويمضي وهو يصفّر مغماً ما لا أدريه من «باسو دُوبلي»
وهي القطعة الجديدة التي سيعزفها في الليل من غير شك . وفي أثناء ذلك
يكثر من تغميض عينيه اللتين عليهما آثار الجدري ، ولكنه لا يلبث أن يعود
ويعطيني بطاقة :

ليون

عميد شباب اللحن

في مغير

طاحونة الهواء

ما أعظم ما كان يبدو لي حينئذ يا بلاتيرو هذا الغدير ، وما أعلى ذلك التل من الرمال الحمراء! هل كانت تنعكس في هذه المياه تلك الأشجار ، أشجار الصنوبر الشائكة ، وتلأ بعد ذلك منامي بصورة جمالها؟ هل هذه هي الشرفة التي نظرتُ منها إلى أشد المناظر صفاء في حياتي تغشاها موسيقى الشمس التي تأسر الأبواب؟

نعم هاهن العجريات والخوف من الثيران يعود ، وهناك أيضاً ، كما هو الشأن دائماً ، رجلٌ منفرد - هل هو نفسه ، أو غيره؟ قابيل سكير ، يقول أشياء لا معنى لها ، في طريقنا ، ينظر بعينه الوحيدة إلى الطريق ليرى هل من أحد يأتي فيه . . . ثم يكف في الحال . . .

هناك الهجران وهناك الرثاء ولكن يا لجدة هذا ويا لحطام ذاك!

قبل أن أعود لأنظر في هذا المكان ذاته يا بلاتيرو خيل إليّ أنني رأيته وهو متعة طفولتي في لوحة لكوربيه وأخرى لبوكلين* . . . أردت دائماً أن أرسم رواءه ، وهو أحمر ، في غروب الحريف ، وقد انثنى بأشجاره في الغدير البلوري الذي يجوّف الرمل . . . ولكن يبقى طلل مزدان بالفجل الحريف ،

* جوستاف كوربيه رسام فرنسي يعد زعيم المدرسة الواقعية (١٨١٩-١٨٧٧) وارنولد بوكلين رسام سويسري (١٨٢٧-١٩٠١) (ج-ع)

طلُّ ذكراه لا تقاوم الإصرار ، كأنه ورقة من حرير بجانب لهبٍ لامع في
الشمس السحرية لطفولتي .

كلا ، لا قَبَلُ لك بأن تصعد إلى البرج ، فأنت كبير جداً بالنسبة له . لو كان خيرالدا إشبيلية لجاز لك أن تفعل !

ما أشد ما يروقني أن تصعدا من شرفة الساعة تتراءى الأسطح البيضاء للقريّة بسقوفها الزجاجية ذات الألوان وأصصها المزدهرة الملونة باللون الأزرق ، ثم من الترفّة الجنوبية التي كسرت الناقوس الغليظ حين رفعوه يتراءى بهو «الكاستيليو» و«الديثمو» ويتراءى البحر في التموج . وأعلى من ذلك تتراءى من النواقيس أربع قرى والقطار الذي يذهب إلى إشبيلية وقطار «ريوتنتو» ، وعذراء «لاينيا» ، وبعد ذلك تهبط ممسكاً بقضيب الحديد وهنالك تمس أقدامك «سانتا خوانا» التي جرحت الشعاع ، وعندئذ سيكون رأسك ، وهو خارج من باب المعبد بين الزليج الأبيض والأزرق الذي تكسره الشمس في ذهب ، مثاراً لفرع الأطفال الذين يلعبون مصارعة الثيران في ميدان الكنيسة حيث يصعد إليك صياحهم من الفرح حاداً صافياً .

ما أكثر الانتصارات التي لا بد من أن تتخلى عنها يا بلاتيرو المسكين ! حياتك سهلة كالطريق القصير للمقبرة القديمة .

حمير الرهلي

انظر يا بلاتيرو إلى حمير «الكيمادو» ، بطيئة متهاكة يثقلها الحمل
الأحمر البارز من الرمل المبلل الذي تحمل فيه مخصرةً من غصن الزيتون
الأخضر تُضرب به ، وهي مخصرة منبئة فيها كأنها في القلب .



مقطوعة شعرية غزلية

انظر إليها يا بلاتيرو ، دارتُ كحصان السرك في الحلبة ثلاث مرات في
البستان وهي بيضاء كأنها موجة وحيدة من بحر الضوء الحلو ثم عادت
لتجتاز الطابية ، تتمثل لي في شجرة الورد البري التي تقوم هناك في الجانب
الآخر وأكاد أراها من خلال الجير . انظر إليها . ها هي ذي مرة أخرى ، الواقع
أنهما فراشتان إحداهما بيضاء وهي هذه ، والأخرى سوداء وتلك ظلها .

هناك يا بلاتيرو وجوهٌ من الجمال الذي يبلغ القمة ، ومن العبث أن
تحاول وجوه أخرى من الجمال إخفائه ، وكما أن عينيك هما المتعة الأولى
في وجهك ، والنجمة متعة الليل ، فإن الوردة والفراشة هما متعة البستان
في الصباح .

انظر يا بلاتيرو ما أحكم طيرانها! ما أمتع طيرانها على هذا الوجه
بالنسبة لها! لعله عندها كلذة الشعر عندي ، وأنا الشاعر الحق ؛ كل شيء
يكمن في طيرانها منها ذاتها إلى روحها ، وقد توحى إلى المرء بأنه لا يعنيه
شيء في العالم ، أعني البستان .

صه يا بلاتيرو . . . انظرُ إليها . ما أمتع أن ينظر المرء إليها وهي تطير
على هذا النحو صافية لا لغو فيها!

لقيت بلاتيرو ملقى في سريرة الذي من القش وعيناه لينتان حزينتان ،
فمضيت إليه ودلته متحدثاً إليه وأردت أن ينهض .

فتقلّب المسكين كله على الفور وترك يداً متحنية ... لم يستطع ..
عندئذ مدّدت له يده على الأرض ومسّحت عليه برفق وطلبت له الطبيب .
وما إن رآه «داربون» العجوز حتى فغرفاه الهائل الذي لا أسنان فيه
على نحو بلغ به تفاحة آدم وجعل يحرك الرأس المحتقن بالدم على الصدر
كأنه رقاص ساعة .

- لا خير يرجى له . إيه؟

لا أدري بم أجاب ... البائس ماله ... لا شيء ... إن أماً ... لا أدري
أي جذر مريض ... الأرض بين العشب .

وعند الظهيرة كان بلاتيرو ميتاً ، والبطن القطني انتفخ كالعالم ، وأرجله
وهي متوترة ، لا لون لها ، ترتفع إلى السماء ، وشعره المجعد كأنه شعر من
القنب المتأكل في العرائس القديمة بحيث يسقط عندما تمر اليد به في أسي
أغبر ...

هنالك عند الزريبة التي يسودها الصمت وكانت كلما مررتُ بها
يوقدها شعاع من الشمس يتخللها من النافذة ، أخذتُ تحوم فراشة جميلة
ذات ثلاثة ألوان ...

يا بلاتيرو أنت لا ترى . أحق هذا؟

أحقاً ترى كيف يضحك ماء الناعورة في الحقل صافياً ، بارداً في سلام ، ويطير النحل العامل حول إكليل الجبل الأخضر والبنفسجي والوردي والذهبي في الشمس التي لا تزال توقد التل .

يا بلاتيرو ، أحق هذا؟

أحقاً ترى حمير الغاسلات حين تمر في الطريق الأحمر للينبوع القديم وهي مكدودة عرجاء حزينة في الصفاء الهائل الذي يوحد بين الأرض والسماء في بلّور واحد من الرواء .

يا بلاتيرو أنت لا ترى ، أحق هذا؟

أحقاً ترى الأطفال وهم يجرون في هرولة بين شجيرات الشعر التي تستقر بين الأغصان أزهارها ذاتها وهي سرب رقيق من الفراشات الهائمة البيضاء التي تقطر لوناً بنفسجياً؟

يا بلاتيرو أنت لا ترى ، أحق هذا؟

يا بلاتيرو ، أحقاً ترانا؟ نعم أنت تراني ، أعتقد أنني أسمع ؛ نعم نعم أسمع في الغروب العاري نهيقك الرقيق الشاكي يحلّو لي به وادي الكروم كله . . .

الحمار الخشبي

وضعتُ على الحمار الخشبي
 سرجَ بلاتيرو المسكين ولجامه
 وشكيمته وحملته كله إلى مخزن
 الحبوب الكبير، إلى الركن الذي
 يوجد فيه المهاد المنسي للأطفال .
 المخزن عريض صامت تغمره
 الشمس، يرى منه ريف مُغير كله،
 طاحونة الهواء الحمراء إلى الشمال؛
 وفي الأمام جبل «منتيمايور»
 بصومعته البيضاء تغطيه أشجار
 الصنوبر، وخلف الكنيسة حديقة
 «لابنيا الختفية»، وفي الغرب يترأى
 البحر عالياً لامعاً في تموجات
 الصيف .



في الإجازات يذهب الأطفال إلى المخزن ليلعبوا عنده، فيصنعون
 عربات الكراسي الواقعة، ويصنعون مسارح بالجرائد الملونة باللون الأحمر،
 وكنايس ومدارس .

وأحياناً يمتطون الحمار الذي لا روح فيه ويشيرون بأرجلهم وأيديهم جلبه
قلقة وهم يركضون في مرج أحلامهم :
هيا يا بلاتيرو! هيا يا بلاتيرو!

ذهبتُ هذا المساء مع الأطفال لأزور قبر بلاتيرو وهو في حقل «لابنيا» أسفل شجرة صنوبر مستديرة أبوية ، ومن حولها كان أبريل قد زين الأرض الرطبة بأزهار السوسن الكبيرة .

كانت الصفارى تغرد هنالك في العلياء في القبة الخضراء وكلها ملونة باللون الأزرق كأنه حلم صاف لحب جديد .

والأطفال ، وقد أخذوا يجيئون ، كفوا عن الصياح ، وظلوا هادئين عليهم أمارات الجذ ، وعيونهم اللامعة في عيني ، وغمروني بأسئلة متطلعة .

قلت للأرض - بلاتيرو يا صديقي! - إن كنت الآن - كما أظن - في مرج من مروج السماء وتحمل فوق ظهرك الدقيق شباب الملائكة فلعلك قد نسيتني ، خبرني يا بلاتيرو : ألا تذكرني؟

ثم ، وكأنه يجيب عن سؤالي ، إذا بفراشة رقيقة بيضاء لم أكن رأيته من قبل لا تكف عن الطيران ، كأنها روح ، من سوسنة إلى سوسنة . . .

إل بلاتيرو في سماء مغير

يا بلاتيرو أيها الحلو الراكض ، يا حماري الذي طالما حملتَ روحي -
روحي وحدها- في تلك الطرق العميقة طرق أشجار التين والخبازي وزهرة
العسل ، إليك هذا الكتاب الذي يتحدث عنك الآن وأنت قادر على فهمه .
يمضي إلى روحك التي تخطو في الفردوس ، من أجل روح مناظرنا
المغيرية التي لعلها أيضاً صعدتْ إلى السماء مع روحك . يحمل على ظهره
الورقي روحي التي إذ تسير مصعدة بين العوسج المزهر تزداد كل يوم خيراً
وسلاماً وصفاء .

نعم . أعلم أنك عند هبوط المساء إذ أصل بين الصفاري وأزهار البرتقال
وأنا على مهل أفكر ، مجتازاً شجرة البرتقال المنفردة إلى شجرة الصنوبر التي
تهدهد موتك . ستراني يا بلاتيرو وأنت سعيد في مرجك ، أقف بين يدي
السوسن الذي نبت من قلبك المفكك .

بلا تيرو هه كرتون

يا بلا تيرو ، لما خرجتُ على الدنيا قطعةً من هذا الكتاب الذي وضعته في ذكراكُ أهدتني صديقة لي ولك بلا تيرو من كرتون .

هل تراه من هناك؟ انظر . نصفه رمادي ونصفه أبيض ، فمه أسود ملون وعيناه كبيرتان جداً وسوداوان جداً ؛ محامله من الفراء وبه ستة أغصان عليها أزهار من ورق الحرير ، وردية وبيضاء وصفراء ، يحرك رأسه ويمشي على لوح ملون باللون النيلي مع أربع عجلات خشنة .

ولكثرة ما أذكرك يا بلا تيرو أخذتُ أتعلق بهذا الجحش الألعوبة ، وما من أحد يدخل مكتبي إلا ويقول وهو يبتسم : بلا تيرو . وكلما جهله أحد وسألني ما هذا؟ قلت : «هذا بلا تيرو» .

وقد اعتقدت ذلك وألفت الاسم الذي علق بإحساسي إلى حد أنني أصبحت وأنا في وحدتي ، أعتقد أنه أنت بذاتك أراك بعيني . أنت؟ ما أحقر ذاكرة القلب الإنساني! بلا تيرو هذا الذي من الكرتون يبدو لي اليوم بلا تيرو أكثر منك أنت يا بلا تيرو . . .

إلى بلاتيرو في ألبنة

أجىء يا بلاتيرو لحظة لأكون مع موتك ، لم أعش ، لم يحدث شيء ،
أنت حي وأنا معك . . أجىء وحدي ، لقد صار الأطفال والطفلات رجالا
ونساء . أنجز الخراب عمله في ثلاثتنا - كما تعلم - ونحن على منفاه
قائمون ، سادة لأعظم ثروة : ثروة قلبنا .

قلبي ! عسى القلب يكفيهم كما يكفيني ، عسى أن يفكروا كما أفكر .
لكن كلا ، خير لهم ألا يفكروا . . . وبذلك لا يبقى في ذاكرتهم حزن
شقاوي وشؤمي وحماقاتني .

يالها من فرحة ، وباله من صواب أن أقول لك أنت هذه الأشياء التي
لا يعرفها أحد سواك . . . سأرتب أفعالي حتى يكون الحاضر حياتي كلها
وتكون الذكرى شبيهة بها وحتى يترك لها المستقبل الصارم الماضي الذي في
حجم بنفسجة وفي لونها الهادىء في الظل ، وفي عطرها الرقيق .

أنت يا بلاتيرو وحدك في الماضي ، ولكن ماذا يعينيك الماضي وأنت
تعيش في الخلود وفي يدك ذات الحمرة القائمة التي كأنها في قلب إله
جليل ، كما في يدي ، شمس كل صباح .

إلى بلاتيرو في ألبنة

أجيء يا بلاتيرو لحظة لأكون مع موتك ، لم أعش ، لم يحدث شيء ،
أنت حي وأنا معك . . أجيء وحدي ، لقد صار الأطفال والطفلات رجالا
ونساء . أنجز الخراب عمله في ثلاثتنا - كما تعلم - ونحن على منفاه
قائمون ، سادة لأعظم ثروة : ثروة قلبنا .

قلبي ! عسى القلب يكفيهم كما يكفيني ، عسى أن يفكروا كما أفكر .
لكن كلا ، خير لهم ألا يفكروا . . . وبذلك لا يبقى في ذاكرتهم حزن
شقائي وشؤمي وحمائاتي .

يالها من فرحة ، وباله من صواب أن أقول لك أنت هذه الأشياء التي
لا يعرفها أحد سواك . . . سأرتب أفعالي حتى يكون الحاضر حياتي كلها
وتكون الذكرى شبيهة بها وحتى يترك لها المستقبل الصارم الماضي الذي في
حجم بنفسجة وفي لونها الهاديء في الظل ، وفي عطرها الرقيق .

أنت يا بلاتيرو وحدك في الماضي ، ولكن ماذا يعنيك الماضي وأنت
تعيش في الخلود وفي يدك ذات الحمرة القائمة التي كأنها في قلب إله
جليل ، كما في يدي ، شمس كل صباح .

46	٢١ السطح	5	مقدمة
48	٢٢ العودة	11	بيان للكبار
49	٢٣ الشباك المغلق	13	١ بلاتيرو
50	٢٤ دون خوسيه القسيس	15	٢ الفراشات البيضاء
51	٢٥ الربيع	16	٣ عبث الغروب
53	٢٦ الجب	18	٤ الكسوف
55	٢٧ الكلب الأجرب	20	٥ رعدة
56	٢٨ الغدير	22	٦ المدرسة
58	٢٩ قصيدة أبريل	24	٧ المجنون
59	٣٠ الكناري يطير	26	٨ يهوذا
60	٣١ الشيطان	27	٩ التين
62	٣٢ الحرية	29	١٠ صلاة الغروب
63	٣٣ المجريون	31	١١ المقبرة
65	٣٤ الحبيبة	32	١٢ الشوكة
67	٣٥ الدودة التي تمص الدماء	34	١٣ القنابر
69	٣٦ العجائز الثلاث	35	١٤ الزريرة
70	٣٧ العربة الصغيرة	36	١٥ خصاء المهر
71	٣٨ الخبز	38	١٦ المنزل المقابل
73	٣٩ أجلاي	39	١٧ الطفل الأبله
75	٤٠ حبيبة كينونا	41	١٨ الشبح
		43	١٩ مشهد أرجواني

١١٠	٦١ الكلبة الوالدة	77	٤١ داربون
١١١	٦٢ هي ونحن	78	٤٢ الطفل والماء
١١٢	٦٣ العصافير	80	٤٣ الصداقة
١١٤	٦٤ فرسكو فيلث	82	٤٤ التي تميم الطفل بغنائها
١١٥	٦٥ الصيف	83	٤٥ شجرة الفناء
١١٧	٦٦ نار في الجبال	84	٤٦ المسلولة
١١٩	٦٧ المسيل	85	٤٧ قطر الندى
١٢١	٦٨ الأحد	87	٤٨ رونسار
١٢٢	٦٩ غناء الصرصر	89	٤٩ صاحب صندوق الدنيا
١٢٤	٧٠ مصارعة الثيران	91	٥٠ زهرة الطريق
١٢٦	٧١ عاصفة	92	٥١ لورد
١٢٧	٧٢ قطف العنب	94	٥٢ البئر
١٢٩	٧٣ ليلا	96	٥٣ المشمش
١٣٠	٧٤ سريتو	99	٥٤ رفسة
١٣١	٧٥ الرقدة الأخيرة في العصر	101	٥٥ التحمير
١٣٢	٧٦ النيران	102	٥٦ الموكب الديني
١٣٣	٧٧ الروضة	104	٥٧ جولة
١٣٥	٧٨ القمر	105	٥٨ الديكة
١٣٦	٧٩ فرحة	107	٥٩ الغروب
١٣٧	٨٠ البطاط تمضي	108	٦٠ الخاتم

164	١٠١ الصدى	139	٨١ طفلة صغيرة
166	١٠٢ الفزع	140	٨٢ الراعي
168	١٠٣ الينبوع القديم	141	٨٣ الكناري يموت
170	١٠٤ طريق	143	٨٤ التل
171	١٠٥ الصنوبر	144	٨٥ الخريف
173	١٠٦ الثور الهارب	145	٨٦ الكلب المربوط
174	١٠٧ قصيدة نوفمبر	146	٨٧ السلحفاة الإغريقية
175	١٠٨ الفرسة البيضاء	148	٨٨ مساء أكتوبر
177	١٠٩ جلبة	149	٨٩ أنطونيا
178	١١٠ الفجر	151	٩٠ العنقود المنسي
179	١١١ اللهب	152	٩١ الميرانتي
180	١١٢ نقاهة	153	٩٢ صورة
181	١١٣ الحمار العجوز	154	٩٣ قشرة السمك
183	١١٤ الفجر	155	٩٤ بنيتو
184	١١٥ زهيرات	156	٩٥ النهر
185	١١٦ عيد الميلاد	158	٩٦ الرمانة
186	١١٧ شارع لاريرا	160	٩٧ المقبرة القديمة
187	١١٨ الشتاء	161	٩٨ لبياني
188	١١٩ لبن الأتان	162	٩٩ الحصن
190	١٢٠ ليلة صافية	163	١٠٠ حلبة الثيران القديمة

- ١٢١ تاج من البقدونس 192
- ١٢٢ الملوك المجوس 194
- ١٢٣ جبل الذهب 196
- ١٢٤ النبيذ 198
- ١٢٥ الخرافة 199
- ١٢٦ كرنفال 201
- ١٢٧ ليون 203
- ١٢٨ طاحونة الهواء 205
- ١٢٩ البرج 207
- ١٣٠ حمير الرملى 208
- ١٣١ مقطوعة شعرية غزلية 209
- ١٣٢ الموت 210
- ١٣٣ حنين 211
- ١٣٤ الحمار الخشبي 212
- ١٣٥ أسى 214
- ١٣٦ إلى بلاتيرو في سماء مغير 215
- ١٣٧ بلاتيرو من كرتون 216
- ١٣٨ إلى بلاتيرو في أرضه 217

- ١٢١ تاج من البقدونس 192
- ١٢٢ الملوك المجوس 194
- ١٢٣ جبل الذهب 196
- ١٢٤ النبيذ 198
- ١٢٥ الخرافة 199
- ١٢٦ كرنفال 201
- ١٢٧ ليون 203
- ١٢٨ طاحونة الهواء 205
- ١٢٩ البرج 207
- ١٣٠ حمير الرملى 208
- ١٣١ مقطوعة شعرية غزلية 209
- ١٣٢ الموت 210
- ١٣٣ حنين 211
- ١٣٤ الحمار الخشبي 212
- ١٣٥ أسى 214
- ١٣٦ إلى بلاتيرو في سماء مغير 215
- ١٣٧ بلاتيرو من كرتون 216
- ١٣٨ إلى بلاتيرو في أرضه 217

- ١٢١ تاج من البقدونس 192
- ١٢٢ الملوك المجوس 194
- ١٢٣ جبل الذهب 196
- ١٢٤ النبيذ 198
- ١٢٥ الخرافة 199
- ١٢٦ كرفال 201
- ١٢٧ ليون 203
- ١٢٨ طاحونة الهواء 205
- ١٢٩ البرج 207
- ١٣٠ حمير الرملى 208
- ١٣١ مقطوعة شعرية غزلية 209
- ١٣٢ الموت 210
- ١٣٣ حنين 211
- ١٣٤ الحمار الخشبي 212
- ١٣٥ أسى 214
- ١٣٦ إلى بلاتيرو في سماء مغير 215
- ١٣٧ بلاتيرو من كرتون 216
- ١٣٨ إلى بلاتيرو في أرضه 217